



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

رحلة طبيب في الجزيرة العربية

تأليف

دكتور هاريسون

ترجمة

محمد أمين عبدالله

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

مجلس العلماء
مكة المكرمة



مجلس العلماء
مكة المكرمة

مجلس العلماء
مكة المكرمة

مجلس العلماء
مكة المكرمة

« أن الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب هي على مسئولية المؤلف ولا تعبر بحال من الأحوال عن آراء حكومة سلطنة عمان »

قوله: "وَمَا يَكْفُرُ بِهِ إِلَّا الْأَعْمَىٰ" أي لا يَكْفُرُ بِهِ إِلَّا الْأَعْمَى
الذي لا يبصر، فكيف يبصر ما لا يرى؟

الفصل الأول

تقديم مسقط

كان السؤال الذى تردد فى ذهنى كثيرا فى السنة الأخيرة لاقامتى فى جونز هوبكنز ، هو ، أين تنوى الاقامة ؟ وكانت الاجابة : فى الجزيرة العربية •

وقد اخترت الجزيرة العربية بالذات حيث ان الأطباء هناك قليلون ، ولذا فهم يتخصصون كما يريدون ، ويباشرون من فروع الطب ما يشاءون • وهكذا وجدت نفسى فى طريقى الى هناك مرورا ببومباى ، ومنها الى الجزيرة العربية ، وفى تلك المنطقة وجدت حاجة الناس أكبر بكثير مما كنت أتوقع •

وبعد عام من وصولى أرسلتني الارسالية للعمل بمسقط ، وذلك بعد أن اعتاد لسانى على مبادئ اللغة العربية •

ومسقط عاصمة عمان ، وهى أول ميناء للجزيرة العربية على الخليج ، وهى امبراطورية صغيرة ، تقع فى الركن الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، امبراطورية من الصخور العارية ، طولها ثلثمائة ميل ، وعرضها مائة ، ومن سلسلة الجبل الأخضر ، الذى يرتفع فى أقصاه الى تسعة آلاف قدم ، ويستطيع الانسان أن يرى الكتل الكبيرة ممتدة الى أقصى ما تستطيع العين أن ترى ، وتجرى الوديان بين الجبال •

ومما لاشك فيه أن الثورات البركانية الهائلة قد حددت الى حد ما التاريخ المبكر لهذه الدولة •

وان عزلة عمان الكاملة هي التي جعلت العرب يعتبرونها امبراطورية في حد ذاتها ، فمن الخلف تقع الصحراء الكبيرة ، المسماة بالربع الخالي ، وتشغل كل جنوب الجزيرة العربية الوسطى • وحين وقفت على احدى قمم هذه الصحراء رأيت الكثبان الرملية الخالية المقفرة •

ويحكى أن أحد مشايخ عمان — ذا العزيمة القوية — قد عبرها منذ ثلاثين عاما لتأدية فريضة الحج • وقد حمل نصف القافلة بالماء ، وعندما فرغت قرب الماء قتلت الجمال الزائدة •

وقد عبرها البعض أيضا ، ولكن عملية العبور هذه كانت تعتبر عملا بطوليا باهظ الثمن • وقد أضاف أحدهم هذا الربع الخالي الى قائمة الأماكن الصعبة التي اخترقها الرجل الأبيض ، وكانت بالنسبة له أيضا عملا بطوليا شاقا وباهظ الثمن •

والمر منعدم تقريبا ، فهو يسقط على الساحل بمعدل ثلاث بوصات في العام ، ويقل في الداخل الى بوصة تقريبا •

ولكن شهرة مسقط العالمية تعتمد على حرارتها ، فهناك العديد من الأماكن الواقعة ناحية الجنوب ، عاش فيها الرجل الأبيض المتجول • وفي حقيقة الأمر فان مسقط تكاد تقع في داخل المنطقة الاستوائية ، ذلك أنها تقع تماما على مدار السرطان • وتقوم الجبال الصخرية العارية الموجودة هناك بوظيفتين هما :

١ — صد النسيم وابعاده •

٢ — الاحتفاظ بالحرارة • ولذلك تعرف مسقط بأنها واحدة من أكثر ثلاث مناطق حرارة في العالم ، عاش فيها البيض •

وكان أول لقاء لى مع تلك الحرارة ذات ليلة جديرة بالذكر ، وذلك حينما سلكت طريقى باتجاه الشمال ، فى طريقى الى الهند ، وكنا قد أبحرنا بين لسانين من الأرض يحصران الميناء ، وكانت الشمس قد اختفت منذ ساعتين ، والأرض على مسافة مئات الأقدام ، لكن تلك الصخور الكبيرة كانت مثل الأفران ، وقد أتى الهواء بحرارتها ، وعند منتصف الليل تراجع البخرة ، واستنشقتنا الهواء الحقيقى مرة أخرى ، وقد علمت فيما بعد أن هذه الحرارة الفائقة أثناء الليل هى احدى السمات المميزة لعمان ، وهناك دائما قليل من الهواء أثناء النهار • وحتى فى الصيف ، ولكن بعد غروب الشمس يختفى ذلك الهواء ، وتنطلق الحرارة التى تسلطها الشمس القاسية على الصخور طوال النهار ، وبين الحين والحين يهب على المدينة اعصار عنيف من ناحية الجبال يستمر حوالى نصف الساعة ، يشبه أنفاس الفرن الساخنة • وقد أخبرنى القنصل البريطانى ، أنه رأى مقياس درجات الحرارة (الترمومتر) تسجل ١٢٠ فهرنهايت عند منتصف الليل ، وتوجد المنازل الصغيرة على طول حافة الماء — فى ظل الجبال الهائلة — ويسكن الناس فى هذه المنازل •

ويرحل معظم العرب بعيدا عن المدينة لمدة ثلاثة أشهر ، أثناء الصيف ، حيث يتم اغلاق المستشفى ، ويذهب الطبيب المختص الى الهند ، ولسوء الحظ يستمر الطقس الحار الى ما بعد تلك الاجازة الطويلة • وقد كنت أكتب خطاباتى أثناء الليل وأنا عار حتى الخصر ، بسبب الحرارة الليلية المرتفعة ، والتى كانت تجعل جسدى يتصبب عرقا • وذات ليلة خرجت من انشغالى فى كتابة أحد الخطابات لى أتتحقق من احدى قطرات العرق وقد كانت تجرى فوق ظهري ، ولكن الغريب أنها كانت تجرى لأعلى ، مما دعانى لتحرى الأمر ، ولشد ما كانت دهشتى حين شاهدت حشرة صغيرة متشبثة ، تتصارع ضد تيار العرق ، وانتصح أنها سيئة الحظ ، ولذلك أنقذتها وتركتها تذهب ، لأنى تأكدت أنها كانت تجد صعوبة فى مناخ مسقط •

وتعتبر مسقط وضاحتها — مطرح — حيث المستشفى الذى نعمل به — من أسوأ الأماكن لاقامة البشر على طول الساحل •

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال !! •

لماذا يعيش الناس هناك ؟ بالتأكيد نحن لا نختار أسوأ الأماكن لى تكون مراكز حكومية ، ولكن السبب فى ذلك هو التجارة ، لا نحن •• فيعيش فى مسقط ومطرح حوالى عشرة آلاف ، أو ربما خمس عشر ألف نسمة ، وتعتبر مسقط أكبر مدينة فى عمان • ووجود الناس بكثرة هناك بسبب الميناء ، وهو المأوى الوحيد للسفن القادمة من المحيط على طول الساحل بأكمله ، وقد قام اللورد كرزون بزيارة مسقط ، وازداد أبناء مسقط فخرا حين أخبرهم بأن لديهم أروع ميناء فى الشرق الأدنى كله •

ولكن عندما تهب عاصفة يصبح ميناء مسقط مكانا سيئا للغاية ، وأحيانا أخرى يكون ناعما مثل لوح الزجاج ، يجعل من الممكن مشاهدة الأسماك الكبيرة ، وهى تسبح بتكاسل خلال الماء البارد على مسافة عشرين قدما تحت سطح الماء •• ويصبح من الصعب على من يشاهد هذا المشهد البديع الا أن يتمنى أن يكون كالأولاد الصغار ، يرغب فى العصا السحرية التى تحولها الى سمكة ، أو على الأقل ذلك المعجون السحري الذى يمكننا من النزول الى الأعماق الباردة فى زيارة طويلة •• وعندما يكون البحر هادئا والهواء ساخنا أثناء الليل يصبح الوميض الفسفورى آية من آيات الجمال ، ويعتبر الوضوح الرائع للمنظر الطبيعى لعمان حديث كل زائر ، ووسط هذه الجبال الصخرية العارية لم أستطع التغلب على دهشتى عندما وجدت فوق هذه الكتل الصخرية العارية شجرة خضراء أو اثنتين ، وكأنما تمثلان دليلا أزليا على أن امكانية خصوبة الأرض أمر ليس ميؤوسا منه تماما •

وأول ما يتعلمه الزائر الجديد بصورة تلقائية هو أن الناس هناك طيبون وممتازون .. فأول ما يقابل الزائر هم الملاحون الذين يقومون بتحية الزائر في قوارب ضيقة تحمل كل منها ثلاثة رجال .. وهؤلاء الملاحون مرحون يستطيعون السباحة مثلما يسيرون على الأرض ، وحتى إذا هبت عاصمة شمالية غربية قاسية على ميناء مسقط فهي لا تسبب لهم أى ارتباك •

وتمر الباخرة التى تدخل الميناء بأسطول صغير من هذه القوارب التى تنتظر وصولها الى المرسى ، وتقضى الاتفاقيات بأنه على الباخرة التى تدخل الميناء أن تقدم تحية مدوية للسلطان الحاكم ، ويتم الرد عليها بصورة صاخبة ، ويصعد الحجر الصحى الى متن السفينة ليعلم أنها خالية من الطاعون والأوبئة ، وبعد ذلك يتكالب عليها أسطول الزوارق الصغيرة .. وان كان من غير المتوقع وجود مجال واسع للعمل ، فان عشرات الزوارق تتصارع من أجل الحصول على مكان ملائم بالقرب من الممر ، ويسود بعد ذلك صخب مطلق ، ويتمنى كل صاحب زورق أن يجد نصيبا من العمل ، ويزدحم الممر بالأحمال الضخمة التى يحملها المسافرون ، من الأثاث وفراش الأسرة .. ويقوم الملاحون الأشداء بحمل كل هذا ، ومن الممكن اذا انتظر المسافرون الذين يصلون الى الشاطئ مدة نصف ساعة حتى يتمكن القادمون الجدد من مغادرة السفينة بسلام ، ان يتم تجنب الفوضى ، ولكن الحقيقة التى تأكدت منها هى أن العماني يستمتع بالعمل فى ذلك الجو المزدحم ، ولا بد وأن تكون هذه الفترة - نصف الساعة - منتهى السعادة لهؤلاء الذين يحبون هذا الازدحام •

والتنافس على مكان عند الممر هو لعبة مسقط الرسمية ، وهى تحل محل كرة القدم ، وعندما يبدأ اندفاع الملاحين من أصحاب الزوارق فى الانتهاء ، يصل فريق من القوم يحوطهم الوقار والانتزان ، وهؤلاء هم تجار مسقط ، وقد أتى اثنا عشر أو عشرون منهم يودعون أحدهم المسافر

الى بومباي •• على الفور يظهر التناقض الشديد بين الوقار الطبيعي لهؤلاء التجار مع النشاط الصاخب للملاحين ، ورغم ذلك تظهر الصورة توافقا تاما بين الطرفين ، ذلك لأن كليهما يتصرفان بطبيعة واضحة •

ومنذ خمسة وعشرين عاما كان تجار مسقط قد كونوا مجموعة أكبر مما لديهم الآن ، وقد امتدت شهرتهم من سنغافورة الى مصر ، ورغم كل التحركات ضدهم فان سماتهم لم تتغير ، فهم يرتدون الزى الأبيض النقي ، ووقارهم الهادئ واضح جدا ، وقد زار معظمهم بومباي عدة مرات ، وقام الكثيرون منهم بزيارة أوربا ، ويستمتع كل منهم بصورة عملية الى أخبار العالم من الاذاعات العربية •

وهؤلاء التجار هم أبرز مواطني مسقط •• الذين لا يتكلمون في المظهر أو الحديث ، حتى اذا ما حادثهم الملوك •• وهم أيضا مهذبون ، يتصفون بضبط النفس مع الجميع ، ولا نظير لهم من حيث دماثة خلقهم ، وتصرفهم تجاه وجهات النظر الجديدة ، وأيضا من حيث مقدرتهم على ابقاء خططهم على الكتمان ، وتحديد القرارات الخاصة بهم ، وهم مسلمون مخلصون •• يملكون المناعة ضد الوطنية المحمومة التي زحفت عبر العالم ، حتى انهم ناقشوا نزاع فلسطين الحالي بلا تعصب أو تطرف على الاطلاق ، وهم يؤمنون بأن هذا أفضل من الصراع العقيم الذي لا هدف له من أجل تحقيق المستحيل ، وهم واقعيون ، يعرفون أن المدارس والتقدم الداخلى من خلال التعليم يجب أن يحدث أولا •

ومنذ سنوات قليلة جاء أحد الدارسين النمساويين تصحبه زوجته لاجراء دراسة على عرب ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، وقد أعرب لى عن دهشته فى أنه وجد بلوشيين فقط ، ولقد بالغ فى وصفه لهذه النقطة ، ولكنها أمر حقيقى فالبلوشيون يدفعون العرب الى الخارج ، حتى ان كل

الملاحين تقريبا بلوش ، وأيضا بعض التجار ، فالمهاجرون منهم يتعلمون اللغة العربية ، وبعد قليل لا يمكنك تمييزهم عن العائلات العربية القديمة ، ويرتدى القادمون الجدد ذى البلوش ، ولكنهم بعد عام أو اثنين ينصهرون تماما ، وان لم يكن هناك شك في أن الجنس العربى قد استوعب في الماضي مثل هذه التيارات المهاجرة •

والى جانب هذه المجموعة من التجار المرموقين فهناك عدد من الأفارقة ، بعضهم عبيد ، والبعض الآخر كانوا عبيدا تم تحريرهم ، وقد كان من المعتاد توريد العبيد من أفريقية بالآلاف ، وكانت مسقط واحدة من أكبر مراكز العبيد في العالم ، ولكن كل ذلك قد انقضى الآن ، ولم يعد يتم جلب العبيد من افريقية ، وان كان مازال بالمدينة عدد ضخم منهم •

وقد شيد البرتغاليون في القرن الخامس عشر قلعة على كل جانب من جانبي الميناء •

وتقوم أبراج مراقبة أصغر بحماية كل واد يكون مدخلا لقوة مهاجمة ، وتنتشر هذه الأبراج فوق القمم في كل اتجاه •• وما من مكان في عمان الا وفيه برج من أبراج المراقبة هذه •

وأكبر هذه الأبراج هو الحصن الذى يقع على مسافة خمسة عشر ميلا من الساحل وقد كان يحمى مدينة الرستاق التى كانت عاصمة لمسقط ، وهو حصن هائل ، وحين قمنا بزيارته وجدنا مدفعا نحاسيا ، يبلغ طوله خمس عشر قدما •• وينسب هذا الحصن أيضا للبرتغاليين ، حيث وجدنا نقوشا برتغالية على المدفع النحاسى •

ولابد أن طاقة البرتغاليين وقوتهم أيام مجدهم العسكرى والبحرى

كانت هائلة ، فمزال الكثير من تقاليد قوتهم واصرارهم متوافرا بين
العمانيين •

وقد خصص السلطان منذ عشر سنوات عدة آلاف من الروبيات
لتشييد الطريق الذى يربط بين مسقط ومطرح ، وطوله ميلان •

وقد كان البرتغاليون بارعين فى تشييد القلاع ، ولكنهم — مثل
الأترک ، بعد ذلك بثلاثمائة عام — لم يتركوا خلفهم أثرا باقيا ، سياسيا
كان أو اجتماعيا أو اقتصاديا • ورغم أن التاريخ العماني ينقصه الطابع
العسكرى فان له أهمية كبيرة •

ولقد قامت مجموعة مهاجرة فى عهد الخلفاء المسلمين بغزو عمان
قبل البرتغاليين بحوالى ثمانمائة عام ، وقد جاءوا فى موجات مختلفة فى
أعداد صغيرة نسبيا • وهم يمثلون الحزب الذى عارض تحويل الخلافة
من المدينة الى دمشق ، وقد ساعدوا على بن أبى طالب فى حروبه ضد
دمشق ، ثم بعد ذلك انشقوا عنه وتركوا لواءه — وهم محافظون من
الطراز الأول ، فقد كشفوا الكثير عن مساوئ قصور الخلافة آنذاك ،
وكانت السلطات تكرههم بشدة ، بسبب آرائهم الصارمة ومعتقداتهم
السياسية المستقلة •

لقد كانوا أشياع على بن أبى طالب وناصره حتى وقت هزيمته
على يد معاوية • هكذا تطالعنا الكتب التاريخية ، وان كان من الصعب
تصديق ذلك ، لأن معتقداتهم الدينية التى أثروا بها معهم جاءت لى
تسيطر على كل عمان ، وقد استمرت ، وحقيقة أنهم كانوا أشياع
على بن أبى طالب فى أوائل عهدهم به ، وان كانت تعنى أن مركز الشيعة
فى ذلك الوقت كان غير محدد تماما ، وذلك لأن الاباضيين وتعاليمهم

كانت أبعد ما تكون عن مذهب الشيعة ، وكانت في الواقع آراء مبسطة ونقية •

وكان عدد المهاجرين قليلا وشكلوا مستعمرة صغيرة ، وقد وجدوا الدولة مسكونة ومزروعة تماما كما هي اليوم •

وعلى أية حال فهم سرعان ما حكموها من أدناها الى أقصاها ، وقد حلت عقيدتهم محل كل النوعيات الأخرى •

والعمانيون لا نظير لهم في المجاملة وضيافة الغرباء • وبينما كنت في طريقى لدبي ، لزيارة احد الاصدقاء ، وعلى بعد خمسة أميال توقفت عند كوخ احد الصيادين كي أطلب جرعة ماء ، وكان الصيف قد انتصف ، ويحتاج المترجلون في ذلك الوقت الى الماء بكثرة ، وقد افترش هذا الصياد حصيرا في الظلال كي أجلس عليها ، وأتى بالتمر والزبد والماء لكي يساعدني في ذلك القيط الخائق ، وقد كان — وبحق — حسن الضيافة ، فالضيافة هي تاج العربى في حياته الاجتماعية •

والمعتقدات الدينية في عمان عميقة وقوية • وهم يتيقدون بدقة بالتعاليم الدينية ، فالتدخين محرم ، وكان من المستحيل في زيارتنا الأخيرة لسفالة أن نأخذ معنا فوتوغرافا متنقلا ، حتى اننا تركنا الشطرنج ، وربما سبب لنا المرح ، والمرح الصاخب هناك ينظر اليه بعبوس •

وهؤلاء العرب فردانيون ^(١) « مستقلون » متمسكون وحتى اهتماماتهم الدينية لم تستطع أن توحدهم في دولة مستقرة • وقد كان

(١) الفردانى هو من ينهج في الفكر والعمل نهجا بارزا مستقلا •

تاريخ المنطقة تكرارا مملا للدسائس والاغتيالات والتمرد والشغب والحروب ، كبيرة كانت أم صغيرة •

وليس من قبيل المصادفة أن زى الرجل العادى يحتوى على البندقية وحزام الخرطوش ، والخنجر المتقوس الرهيب • فحمل السلاح ضرورى •

ففى نفس هذه الزيارة لصحار طلبت من رئيس ادارة الجمرك أن يرسل رسالة ما الى صديق ، فدعا واحدا من خدمه ، وأعطاه الرسالة ، فقال له الخادم : « ليس من الممكن أن أذهب الآن ، فقد تركت بندقيتى فى البيت » فارتبك المدير للحظة ، اذ من الواضح أنه من المستحيل أن يخرج بدون هذا الجزء من بزمته •

وهناك قال المدير « حسنا ، خذ بندقيتى اذن » وهكذا أخذ الرسول بندقية سيده ، وأصبح قادرا على الخروج وحمل الرسالة •

الفصل الثاني

تجاربى الأولى

لقد وجدت مسقط مكانا شيقا ومتناقضا من الظاهر .. فعمان كلها عبارة عن قفر من الجبال الصخرية العارية ، وكأنها تجسيد للأوضاع الاقتصادية ، وفي أواخر عامى الأول هناك وقفت على قمة الجبل الأخضر ، وهو أعلى سلاسل جبال عمان . فرأيت على مسافة أربعين ميلا رقعة شاسعة مترامية الأطراف من الجبال والوديان ، وهى أشبه بأمواج هائلة لبحر مرعب من الصخور .. وتنتشر الواحات الصغيرة خلال هذه المنطقة المجدبة والكئيبة ، حيث يمكن أن تجد بعض الماء المتاح ، ولكنه قليل ، وهذه الواحات صغيرة وقليلة العدد .. وقد بدأت قافلتنا فى الانتقال من واحة الى أخرى مجاورة لها ، على مسافة عشرين أو ثلاثين ميلا ، وقد حولت حرارة الشمس الحجارة نفسها الى اللون الأسود تقريبا ، وكانت عظام الجمال الميتة هى العلامات الوحيدة فى طريقنا .

ورغم سقوط المطر على الساحل بمعدل ثلاث بوصات ، وفى أحيان أخرى ، بوصة واحدة .. فان مسقط خلية نحل مفعمة بالنشاط ، ولدى كل فرد هناك الكثير من تعاقدات العمل .. ولكن العجيب فى هذا النشاط هو تركزه فى مقر الحكومة ، حيث يقيم القنصل البريطانى .. وكنت حين أقوم بزيارة فى مهمة ما أجد المكان يعج بالملابس الرسمية والطلاقة الخفية .. فالجو مفعم بالسياسة : ألمانيا تتحايل للحصول على ميناء فى الخليج ، ولديها قنصلية قوية ، ومؤسسة تجارية فى لنجة . بينما تطمع روسيا فى بندر عباس .. وأيضا شمال فارس الذى كان يشار اليه على أنه تحت

حمايتها ، وأبقت فرنسا على منشأة عسكرية في مسقط •• لكننى سرعان ما علمت أن هذه ليست مسقط الحقيقية ، وأنها ليست ميدان الصراع الذى لا ينتهى بين القوى العظمى ، التى كان تقدر للمكان أهميته الاقتصادية العظيمة ، فهناك نزاع آخر تحت السطح وهو أمر أكثر خطورة •• فقد كانت الصورة كما يلى :

كان يوجد بالميناء عدد قليل من السفن المزودة بالمدافع ، وكانت هذه السفن التى لا يتعدى عددها ستا أو أكثر ، تأتى ثم تذهب •• ولم يكن لهذه السفن دور فى لعبة السياسة الدولية ، لكن ضباط تلك السفن كانوا يندفعون الى القنصلية ، ويخرجون منها بسرعة ونشاط عجيب ، وكثيرا ما كانت وجوههم تبدو عابسة جدا •

والصورة الأخرى •• كان الميناء مليئا بالمرابك الشراعية الكبيرة التى لا تأتى بشيء ، ولا تأخذ شيئا ، وقد تعودنا رؤيتها من شرفة المستشفى ولم يستخدمها أحد فى شحن شيء ما ، كان من الواضح لنا أنها تغوص فى المياه كل صباح بمقدار ست بوصات أكثر من مساء اليوم السابق •• وعندما كانت تلك المراكب تزود بالصابورة على نحو كاف فقد كانت ترفع أشرعتها وتنطلق •• وكان هذا الرحيل دائما أثناء الليل • ثم بعد قليل تتبعها احدى السفن المزودة بالمدافع من الأسطول الذى أطلقنا عليه اسم « الأسطول البعوضة » •

ولقد استغرقت وقتا كبيرا لكى أتتحقق من هذه التجارة المحرمة « تجارة الأسلحة » فقد كان فى مخازن تلك المدينة الصغيرة ما يقرب من مليون بندقية للبيع ، وكميات لا حدود لها من الذخائر ، وقد تم جلبها الى مسقط فى وضوح النهار ، ذلك لأن السلطان كان قد وقع اتفاقيات مع الفرنسيين ومع البريطانيين أيضا لا تحرم استيراد الأسلحة •

وكانت الأسلحة الفرنسية والألمانية متيسرة في مسقط في تلك الأيام ، ولكن الغريب في الموقف هو أن معظم هذه الأسلحة كان يأتي من إنجلترا •

وقد عرفت وقتها معنى الحروف بي — اس — ايه « أسلحة برمنجهام » الصغيرة •• وقد كانت كل هذه البضائع مخصصة للحدود الشمالية الغربية للهند ، حيث يدفع رجال القبائل ثلاثمائة أو أربعمائة روبية ثمنا للبندقية التي نشترها نحن بخمسة عشر روبية •

وقد كان ذلك نوعا مربحا من الشر ، وقد جلب إلى المدينة الكثير من التجاره ، وبالتأكيد جلب الكثيرين من المرضى إلى المستشفى • فكنا نرى عمالقه من ذوى اللحي السوداء أتوا — بالتأكيد — من بلاد بعيدة عن مسقط ، أقول كنا نراهم في غرفة الاستشارة ، وقد أتوا زحفا بسبب الملاريا التي افترستهم حيث ان مسقط كانت تعج بأسراب البعوض ، ولم يستطع أى غريب أن يهرب من الإصابة بالحمى •• فالملاريا والوقار لا يجتمعان ، وكانت مناظر هؤلاء العمالقة ، وهم يترنحون في سيرهم ، مثيرة للشفقة •• وقد ندموا على خطاياهم •• حتى يخلص دواء — الكينين — أجسامهم من الحمى اللعينة ، ثم يعودون بطاقة أكثر من ذي قبل •• ولكن لم يكن جزءا من عملنا أن نسألهم ، ماذا كانوا يفعلون في مسقط •

وأدى تطور هذه التجارة الى زيادة ثراء السلطان •• وقد أدت التجارة نفسها الى رخاء مسقط ، ولكنها تسببت في وفاة أفضل الضباط الذين أرسلتهم إنجلترا ، ومعهم أفضل جنود الهند الشمالية ، وذلك في الاشتباكات على الحدود الشمالية الغربية للهند •

وقد كان السلطان مضيافا كريما ، وقليل ما كنت أذهب اليه ، لأقدم

تحياني الرسمية .. ودان مقر السلطان مقاماً وسط بعض الحدائق
الجميه للعائيه ، وقد وضع السلطان اسداً في قفص حتى يعطى للمكان هيبه
ملحيه ، واحتفظ لعدده سنوات بنعامه اليقه تعطى الاحساس بجو
القرية •

ولبن تعيينى لم يكن له طابع الاستمرار ، فقد افتتح الدكتور توماس
المعمل الطبى في مطرح من قبل ذلك بعامين ، وعندما ذهب الى وطنه في
اجازته لمدة عام أخذت مكانه حتى عاد ، وفي وقتها لم يكن هناك أفضل
من التعاون الذى عرضه السيد والسيدة بارنى — من البعثات التنصيرييه —
للمعمل الطبى ، ولكن ليس من السهل الحصول على مثل هذا النوع الجارى
فلم ينجز ثلاثتنا قدرا كبيرا ، فعلى العمل الطبى أن يكسب سمعته ،
ويشيق طريقه بنفسه ، فأفضل الأصدقاء في العالم لا يستطيعون أن
يصلحوا من شأنه كثيرا •

ولم أتحقق — حتى وصولى الى مطرح .. من أن هذا التعيين كان
مخيفا ، فنفس المكان الذى يستقر فيه المرض يتناقض مع أقل مكان ممكن
لإقامة الأصحاء •

وفي مركز جديد مثل مطرح يمكن استئجار أى مسكن واستخدامه
كمستشفى ، وسابقا كان المستشفى الذى نعمل به بيتا لطبيب هندي في
مطرح لعدة سنوات ، وكان فريدا من حيث احتوائه على سياج حديدية
تطوق فناء من الرمل أمام المنزل مباشرة .. وعلى كل ركن يوجد عمود
حديدى عليه مصباح ، ولم أستطع أن أكتشف المقصود بهذا السياج
الهائل ، ولكنه على كل حال كان جزءا من الاعلان عنا كمستشفى
تنصيرى •

وكما اكتشفت لم يكن السياج الحديدى هو الصفة المميزة الوحيدة

للمكان الطبي •• فالناس يريدون العناية الطبية ، ويرغبون في المزيد منها ، ولكنهم يريدونها مجانا •• فقد عرفوا أن عملنا هو تأدية صلاة ، ولم يسمع احد عن طبيب يطالب بأتعاب صلواته •• وبالطبع فهذه فكرة دينية جميلة ، أن يبذل الطبيب قصارى جهده بصورة زاهدة من أجل صالح المرضى الشاكرين ، ولكنهم فقراء •• وهذا هو المثل الأعلى من الدرجة الأولى •

وعلى أية حال فالموقف في المستشفى التنصيري أقرب منه الى كنيسة ، يشرح فيها القس لجماعة المصلين انه بينما يكون الخلاص مجانا ، فهناك عبء كبير يقع عليه •

والطبيب الذى يتخذ من مهنته طريقا الى التنصير يعد هبة للمجتمع ، فهو لا يكلف الناس شيئا مقابل وقته وخدماته ، ولكن غالبية الناس تنتظر من المستشفى أن تصبح فى حالة اكتفاء ذاتى بعد فترة وجيزة ، ومعقولة من الاعانة •• والاكتفاء الذاتى هنا ببساطة يعنى ، أن المستشفى يجمع الأموال الكافية من الأتعاب ، لسد مصاريف ادارتها •• ورغم تكاليف الأدوية الخاصة بالعلاج والتى تستخدم فى العمليات الجراحية فهناك قدر كبير من الرسوم يدفع على هذه الأدوية •

وقد تسبب الاهمال الشديد فى وجود بعض العلامات التى تميز الجزيرة العربية •• فالشجيرات وحتى النباتات تغطيها الأشواك • وقد تدربت الماعز على البحث عن طعامها فى الصخور العارية ، وكذلك تدرب الناس أيضا •

الفصل الثالث

عمان الداخلية

رغم أنني عند وصولي الى مسقط كنت طبييا حديث التخرج ، حديث المعلومات متخرجاً من افضل مدرسة طبية في العالم ، فقد اكتشفت شيئاً مؤلماً ، هو ، أنه مهما ازدادت معرفتي فانه من الواضح أنني لست تاجراً — فقد كان سلفي يقوم بفحص مائة وخمسين حالة يوماً — أما أنا فقد كان لدى حوالي خمس وعشرين حالة ، وفضلاً عن ذلك فقد كان نصفهم غير محتاجين لأي علاج ، فقد كانت كل مشكلتهم هي البحث عن المزيد من الأطفال •

لذلك فقد قررت ، أن الوقت قد حان للقيام بجولة في المنطقة الداخلية للبلاد ... فبعثتنا تؤمن بدرجة كبيرة في القيام بالرحلات ، وربما كان السبب ، أن المراكز التي كنا نتوقف عندها كانت تقع على الساحل ، وأن كل المدن ذات الموانئ كانت مفتوحة في الأيام الأولى ، ولم نكن نستطيع التعرف على داخل البلاد الا عن طريق الرحلات ، خاصة وقد كان أملنا هو أن توجد مراكز ومستشفيات بعثتنا وسط أفراد الشعب الذين جئنا الى هنا من أجل الوصول اليهم •

ويقال : إن عدد سكان هذا الخضم الهائل من الجبال ، والتي نسميها عمان ، يبلغ مليون نسمة ، وانني لأتعجب !! من المسؤول عن هذا التقدير ؟ خاصة وأنه لم يتم تعداد مدينة واحدة من المدن بغض النظر عن القبائل المتفرقة ، وأنا أشك في أن عدد سكان عمان يتعدى نصف هذا العدد • وكان يجب على هذا النصف مليون نسمة — كما أعتقد — أن يوفرنا كمية أكبر من العمل لأنفسهم عن تلك التي وجدتها في مطرح •

وليس من الممكن في معظم أجزاء الجزيرة العربية أن يعد الانسان لرحلات مثل هذه الرحلة دون جهد تمهيدى طويل ، للحصول على التصريح واجراء الترتيبات •

وعمان دولة لطيفة •• ولها وقع دافئ على النفس ، وكان ذلك واضحا وجليا تماما تحت حكم السلطان ، والشئ الأول الذى تتوقعه هناك هو حسن الضيافة ، وهناك المساجد القائمة على جانب الطريق في كل مكان ، التى يستخدمها المسافرون كماوى حين تهب عاصفة ما •• ويستخدمونها أيضا كمكان للنوم أثناء الليل •

وكانت هذه الرحلة هى سبب تعارض مع الجمال والحمار ، فقد كنا نسافر نهارا ونستريح ليلا •• ذلك لأنها كانت رحلة شتاء •• وقد كانت أيامها طويلة جدا فقد كنا ننهض من الفراش قبل شروق الشمس ، ثم نبدأ رحلة اليوم الشاقة بعد تناول التمر والقهوة •• وأقصى مسافة تستطيع القافلة أن تقطعها أثناء النهار هى خمسة وعشرون ميلا ، ثم يعقب ذلك سبات عميق •• ورغم أن الحمار يسبب للمسافر مشقة أكبر من الجمال ، ولكنه على أية حال سريع الى حد ما •

ولقد كنا حوالى ستة أشخاص ، تم تكليفنا بهذه المهمة •• وكان كل منا يمتلئ ظهر بعيره ومعه حقائب أدوية متنوعة ، وقد تزين البعير بسروج حمراء زاهية •• وكنا نحمل أيضا — فيما نحمل — أدوات الجراحة وآلات خلع الأسنان — وكنا على استعداد لأية طوارئ — أما الطعام فكنا نشتره أثناء سيرنا ، وكان الخبز العربى والتمر هما غذاؤنا الأساسى •

وقد حققت الرحلة نجاحا عظيما — على الأقل من ناحية الأعداد ، وكان مما ييسر عملنا أن المدن الداخلية والقبائل البدوية تعلم أن جونز هوبكنز مدرسة طبية عظيمة ، فقد قبل أهلها بحماس وحسن ضيافة هذا

النتاج الحديث من معاملها وأفرادها •• أما الأمراض فقد كانت كثيرة ••
لدرجة أنني حاولت ذات يوم أن أقوم بفحص مائتي مريض ، وهو شيء
مضحك بالطبع ، ورغم ذلك فقد استطعنا القيام بعمل حقيقى أثناء الرحلة
رغم الأعداد الضخمة من المرضى •

وقد أعطينا دواء الكينين لعدد كبير من مرضى الملاريا ، وتم علاج
كل أنواع القرحة البغيضة •• وهذا جانب من أعظم الجوانب المطمئنة
لعملنا ، ذلك لأننا استطعنا تعليم المرضى كيفية العناية بأنفسهم •

وربما توضح القصة التالية كيفية تعامل البدو معنا ••

ف ذات يوم سألتنى أحد المشايخ الذين قمنا بزيارتهم بطريقة مفاجئة
وغير متوقعة قائلا : « هل تستطيع حقا خلع الأسنان ؟ » فكدت له
أنى أظن ذلك ، فقال : « حسنا جدا •• أخلع إذن سنة من قم هذا
العبد ، فاذا أديت ذلك باقتدار فعليك بخلع سنتى » •

وقد راعنى ذلك الموقف الذى لا يصدق ، ففتحت فمى لى أرفض
مثل هذا العمل •• ثم عدت ، ونظرت الى قم العبد ، فربما كانت لديه
سنة تحتاج الى الخلع ، ولحسن الحظ وجدت لديه بالفعل سنة مريضة
فخلعتها ، وبجاح كبير ، وعلى إثر ذلك فتح الشيخ فمه دون أن يتكلم ،
وخلعت له خرسا ضخما •

ولقد أولينا قدرا كبيرا من اهتمامنا للأسنان فى هذه الرحلة ، وقمنا
بخلع ستة وثمانين فى يوم واحد ، ويعد هذا أسهما مهيبا لراحة الانسان •

ويعيش البدو بصفة أساسية على اللبن ، لذا تجد أسنانهم بيضاء
لامعة ، ومصانة جيدا ، وعلى النقيض من ذلك نجد الأسنان فى المدن فى

حالة يرثى لها .. ولا شك أن نقص الغذاء هو المسئول أساسا عن ذلك ، ولكن الإهمال والقذارة لهما دورهما بالطبع . وقد كان التهاب اللثة سببا في ضعف أسنان البعض لدرجة أنه يمكنك أن تخلع ضرسا بالأصابع ، وإن كان هناك بعضهم يملك أسنانا صلبة متماسكة للغاية .. وكذلك يختلف الناس في رد فعلهم أيضا ، فبعضهم يهرب بمجرد رؤية آلات خلع الأسنان .. ولكن البدوى لديه طبيعة قوية وجراحة نادرة ، وإنى أذكر فيما أذكر .. شخصا في الكويت تحمل صراعا غريبا مع ضرس هائل في محاولة خلعه ، التي استمرت خمس عشر دقيقة ، دون أن يهتز له هذب من أهذاب جفنيه .

وقبل القيام بزيارة بهلا - وهي إحدى المدن الداخلية الكبيرة - أحرزنا شهرة لا نهاية لها ، وكان ذلك عندما قمنا باستئصال ورم رهيب في حجم كرة التنس من رأس رجل .. وقد قمت بإجراء العملية في الهواء الطلق تحت شجرة .. وقد قمت بإجراء عدد من العمليات أصعب بكثير من تلك العملية دون أن أحصل على أية شهرة على الإطلاق .. ولكن الأقدار كانت الى جانبي ذلك الصباح .. فرغم أن الجمهور كان قليلا إلا أنه كان ممتازا .. ولا شك أنه كان من بينه مندوب للصحافة ، رغم أنني لم أعرف شخصيته حتى لاحظنا هذه . ولانتشار شهرة هذا العمل العظيم .. رحبوا بى في المدينة (بهلا) باطلاق النار من بنادقهم ، وكأننى زعيم زائر ..

وفي رحلة من هذه الرحلات قمنا بزيارة لمدينة كانت تتصارع مع وباء الكوليرا اللعين .. وفي الوقت الذى بدأنا فيه هذه الجولة كان الوباء منتشرا ومخيفا ، وكان أنين المحتضرين ومعاناة المرضى بالمغص القاسى تصل الى أسماعنا بصورة مستمرة - ولكن الاجراءات الخاصة بالحجر الصحى والمتبعة الآن أدت الى ازالة الكوليرا من عمان .

ونعود الى رحلتنا .. وقتها طلب منا الشيخ الحاكم ابداء المشورة

قائلا : « كيف يمكن معالجة هذا الوباء » ؟ فأخبرته أنني أعرف كيفية إيقافه ، ولكنى قلت له : إن ذلك لن يجدى ، لأن تعليماتى ستذهب أدراج الرياح ، وقد أثاره ذلك الى الحد الذى دفعه الى أن يصدر أمرا قائلا ، ان ما سيأمر به سينفذ حتى لو اقتضى الأمر إقامة صفوف من المشانق لتنفيذه • فقلت له « حسنا جدا » رغم أنني فى قرارة نفسى كنت أعلم أن ذلك لن يجدى • وشرحت بالتفصيل ، أن هذا المرض نتيجة لجراثيم ملتوية ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة •• ولكن أمكن مشاهدتها عن طريق الميكروسكوب ، وأن هذه الجراثيم تأتى من نفايات المريض بهذا الوباء ، وتصل عن طريق المياه أو الطعام الى الجهاز المعوى لشخص آخر فيصاب بالمرض •• وأن كل ما نحتاج اليه من أجل منع حدوث اصابات جديدة هو ألا نشرب شيئا سوى الماء المغلى ، وألا نأكل شيئا سوى الطعام المطهى •

وقد قام الجنود بتنفيذ هذا الأمر الذى صدر بتهديدات منذرة ، منها أنه اذا تم ضبط أى شخص يشرب ماء غير مغلى فإنه يعدم رميا بالرصاص عند شروق الشمس •

وبذلك توقف الوباء ، كما لو كان قد استوصل بفأس ، ولم تظهر أية حالة جديدة أخرى •

وفى تلك الأيام كان السلطان فى مسقط يحكم كل اقليم عمان ، وقد حملنا رسائل منه الى حكام المقاطعات المختلفة ، واستقبلونا هناك بمودة شديدة ، وكانت ضيافة هؤلاء الحكام رائعة وغريبة • فقد كانوا يضعون كمية من الأرز فى طبق ضخم يصل الى خمس أقدام ، ثم يدقنون خروفا مسلوقا كاملا فى هذا الجبل الأبيض من الأرز ، وكانت شهية العرب الذين كانوا معنا لا يمكن تصديقها ، فهم يأكلون أرطالا من اللحم بكميات

لا يمكن تصديقها من الأرض ، ولكن أجهزتهم المعوية كانت قادرة على هضم كل ما يصل إليها •

وقد وجدنا المنطقة الداخلية مزدهرة مثل مسقط نفسها تقريبا ، ولها نفس الأهمية ، ونظرا الى أن عمل كل مشايخها هو تجارة الأسلحة فقد كانوا يحملون البنادق عبر البلاد ، ويضعونها على متن القوارب في أحد الموانئ الساحلية ، وان كنت أشك في أن عددا لا بأس به من البنادق التي يتم ارسالها بهذه الطريقة يصل بالفعل الى المكان المقصود له ، ذلك ، لأنه من الصعب اعتراض طريق مثل هذه الشحنات •

وفي تلك الأيام كانت واحات عمان الداخلية عبارة عن مزارع وحدائق يمتلكها العرب ويديرونها •• والمقصود بالعرب هم هؤلاء الذين ولدوا ونشأوا فيها ، وقد عاش هؤلاء الناس في مزارعهم ، التي يقوم عدد كبير من العبيد بالعمل فيها •• أكثر المحصولات التي تزرع هناك هو البلح ، الذي لا تتطلب زراعته قدرا كبيرا من المشقة ، وبسبب كثرة عدد العبيد فان مقدار العمل الذي يقوم به كل عبد من المتوقع أن يكون صغيرا •

وفي اقليم الباطنة الذي يقع على طول الساحل تعتبر عملية ري الحدائق عملية شاقة للغاية ، ذلك لأنه يجب رفع المياه من الآبار التي يصل عمقها من عشرين الى ثلاثين قدما ورغم مشقة هذا العمل فالعبيد كثيرون لدرجة أن ساعات عمل كل منهم كانت معتدلة للغاية •

وفي الصباح يجتمع كل منهم في صالة الاستقبال ، لمقابلة أى غريب يكون قد مضى الليلة ، كضيف على المزرعة ، ويجلس الضيف بجانب الرئيس الكبير على مقعد التكريم في أحد طرفي الغرفة الطويلة ، وعند الطرف الآخر يقوم صانع القهوة بتعميص كمية مناسبة من حبات البن الأخضر •

فى وعاء له مقبض طويل على النار ، ثم يقوم بطحنها فى هاون من النحاس الأصفر ، حتى تتحول الى مسحوق ، ويقوم المسئول عن هذا العمل الهام بوضع المزيد من الطاقة والايقاع فيه ، وكلما كان الهاون الذى يعمل عليه مثل الجرس المؤثر جدا ، فان هذا الجرس يؤدى الى دعوة المزرعة بأكملها •

وقد استغرق صنع القهوة نصف ساعة •• وهى من أهم الأعمال التى تتم أثناء اليوم •

ويقوم صانع هذا الشراب المر ، فى تفاخر ملفت للأنظار ، بصب الفنجان الأول لنفسه ، ثم يشربه على مرأى من الجميع قبل أن يعطى القهوة لأى شخص آخر • وهذا بطبيعة الحال يؤكد أنه ليس بالقهوة سم •• ويعد ذلك ضمانا قويا جدا ، لأنه ليس من السهل وضع أى شىء فى الاناء بعد أن صب هذا الفنجان الأول ، ثم شربه •

وعندما تكون القهوة قد أعدت يقوم شخص آخر بالمرور على الضيوف حاملا طبقا هائلا من الفطائر ، يصل قطرها الى قدم ونصف ، محشوة بالزبد والسكر ، ثم تأتى القهوة بعد هذا ، وقد ضج المجلس بتبادل الأحاديث خلال الوقت كله •

وعادة كنا نقضى ساعة فى الافطار ونحمل فى جيوبنا — كما يحمل الآخرون — مجموعة من الخطابات الموجهة الى العديد من أفراد المزرعة ، والتى يتم توزيعها فى مثل هذه اللحظات •

وكانت هذه المرحلة هى أول معرفتى بالرق ، وقد أضافت الى معلوماتى قدرا كبيرا •

حقا كانت هناك تجارة رق ، ولكن من الواضح أن العبيد كانوا

قانعين ، ويتغذون جيدا حتى لقد احتاج بعضهم الى علاج للسمنة • وفى واحد من الأماكن التى كنا ضيوفا بها كان سيد المزرعة غائبا ، ولكن رئيس خدمه وهو من العبيد قام بإدارة المكان كله فى غيابه خير قيام ، ولن أنسى أبدا تلك الضيافة الكريمة والجميلة التى تمتعنا بها معه ••

وقد عرفنا أن واحدا من الحكام المحليين كان أحد الأرقاء ، وقد اجتمعت الآراء على أنه حاكم ممتاز ، وأنه يجوز رضا الجميع •

وكان الشيوخ الذين يملكون المزارع رجالا على خلق ، يتميزون بالذكاء ، وظلت لحاهم البيضاء الطويلة وسلوكهم المجلّ ذكرى عطرة فى أذهاننا ، ولكن معرفتهم كانت محدودة •

ووجدنا سببا آخر لرخاء البلاد ، فبلح عمان يتم تصديره الى أمريكا ، حيث يطالب الأمريكيون بدفع ضعف السعر الذى يتعامل به الآخرون •

يجب أن أعترف بأننى لا أشارك هذا رأى بشأن تمر عمان ، ولسوء الحظ فأمریکا تتفق معى فى الرأى ، وهى نادرا ما تشتري التمر من عمان الآن ، ولكنها كانت تشتري قبل ذلك حوالى ثمانية وعشرين ألفا من صناديق التمر فى العام ، بسعر ستين جنيها للصندوق ، وقد ارتفع السعر المحلى الى ما يقرب من عشرين روبية للصندوق ، وقد كان هذا هو أساس رخاء الدولة أكثر ، حتى من تجارة الأسلحة •

وقد أخذنا طريقنا فيما وراء المناطق الجبلية ، حيث وجدنا كرما رائعا من أصدقائنا ، ووصلنا الى حافة الصحراء العظيمة ، حيث تتعذر المعيشة حتى على البدو أنفسهم ، وعلى حافة تلك البلدة المهجورة عجز الكرم العربى عن أن يجعلنا نعيش بصورة لائقة •• فقد وجدنا ذبابا

أكثر مما رأينا في أى مكان آخر •• الأمر الذى أذهلنا جميعا •• خصوصا
فى مثل هذه البلدة الجافة تماما • ولكننا على أية حال قضينا وقتا طيبا
فى هذه الرحلة التى استغرقت حوالى أربعة أشهر ، واكتشفت عددا كبيرا
من احتياجات البلدة ، وعدت ومعى الكثير من الخطط تتعلق بسلسلة من
المستشفيات الصغيرة التى تمتد عبر عمان •

ثم نقلت الى مركز آخر ، وعاش زميلى الدكتور توماس أشهراً
قليلة بعد عودته •• لكن الموت كان أسرع مما نتوقع ، فقد وافته المنية
فى حادث •

الفصل الرابع

الباب الخلفى لعمان

بعد وفاة الطبيب توماس توقف العمل الطبى فى مطرح ، وقد انقضت عشرون عاما قبل ان تتمكن البعثة من ارسال طبيب آخر الى عمان ، كى يستأنف العمل الذى تركه توماس ... ولكن الموقف كان قد تغير فى غضون ذلك الوقت ، اذ ان بريطانيا العظمى وفرنسا كانتا قد أنهيتا كل خلافاتهما ، فقد اشترت الحكومة البريطانية ملايين البنادق التى ملأت المستودعات وتخلصت منها ، ومن الذخيرة الحربية أيضا ، وبناء عليه تم تطهير المكان تماما ولم تدخل أية بندقية أخرى ، فانتهت تجارة الأسلحة ، وبدأ الأسطول البعوضة الذى يعمل فى تهريب الأسلحة وبيعها يبحث عن مكان آخر •

وعوضت الحكومة الهندية السلطان عن خسارته فى الرسوم الجمركية ، التى كانت تفرض على هذه البضائع ، حيث كانت هذه الرسوم جزءا من أرباحه التجارية ، وكانت تجارة بيع البنادق قد كونت ثروة لمعظم الأفراد ، لذلك عندما فقدوا مصدر الدخل هذا فجأة ثارت عمان ثورة رجل واحد • ولكنها كانت سدى ، فقد دمرت ثروة المدينة وأغلق الجزء الداخلى لعمان •

وقامت البعثة بتطوير مستشفى ضخم فى البحرين ، وانتشرت شهرة العمل الجراحى فى كل منطقة الخليج • فعمان لديها باب خلفى وآخر أمامى • ويتأثر الخلفى هذا بالبحرين ، وقد استطاعت البعثة دخول عمان بعد مجهود دام لمدة عشر سنوات •

و في محطة المساه ميل الاولى لساحل العربي يقع شاطئ القرصان بعد مدخل مضيق هرمز ٠٠ وهناك يمتد عدد من البحيرات الضحلة من البحر نحو الداخل لعدة اميال ٠٠ ويكون هذه البحيرات بذلك مجا تستطيع فيه القوارب السراعية الاحتماء من الاعداء ومن العواصف ٠٠ حيث تجاور كل مدينة احدي البحيرات ٠٠ ولكن القراصنة قد اختفوا الان ، او بالاحرى توقفت القرصنة ، لان السفن الحربية البريطانية جعلت مثل هذه الانشطة مستحبة ٠٠ ولكن في ايام شركة الهند الشرقية كان لابد من مقاومته للصوص حتى باستخدام الحملات الحربية •

وهناك ست مدن كاملة مبعثرة على طول مائة ميل من الشاطئ ، واكبر مدينة هي دبي ، التي تملك أفضل بحيرة ، ولا يقل عدد سكانها عن ثلاثين ألف نسمة ، وفي ايام قوة القراصنة تم بيع عدد كبير من المدافع لكبار اللصوص ، وترقد هذه المدافع الان هنا وهناك ، مثل زخرفة طبيعية رائعة ، وهناك في أم القيوين ثمانية عشر من هذه المدافع العملاقة أمام احدي القلاع المهدمة ، حتى يعلم المسافر عاقبة المغيرين ابتغاء السلب •

وعاد شاطئ القرصان الى صيد اللؤلؤ منذ أن جعلت قوارب المدفعية البريطانية القرصنة عملا مستحيلا ٠٠ ولوقت قريب جدا تم تجريم الأرباب من تجارة الأسلحة ، وفي الأيام التي شاهدت فيها هذه القوارب كانت الصناعة في قمة تطورها ٠٠ فقد كان هناك حوالى ألف مركبة مشغولة بالعمل ٠٠ وكان هذا العدد هو نصف المراكب العاملة ، ووصل عدد الغواصين في كل مركب الى خمسة وعشرين غواصا تقريبا ٠٠

وتتمتد سلسلة صخور اللؤلؤ على طول الشواطئ الغربية للخليج لثلاثمائة أو أربعمائة ميل ٠٠ وفي تلك الأيام كانت الكويت مركزا لتجارة اللؤلؤ في الشمال ، ودبي في الجنوب ، وكانت البحرين أكبر مركز يفد اليه المشترون كل موسم ، من باريس ولندن لشراء اللؤلؤ ، بينما لم تصل

دبى أبدا الى حجم أو أهمية الكويت أو البحرين ، حيث كان العبيد هم الذين يديرون الصناعة على نطاق واسع فى دبى •

وقد كان للاتصالات الاجنبية والسفر المرتبط بتجارة اللؤلؤ شأن كبير فى نموين الكويت والبحرين ، لكن دبى لم تتأثر بهذا التموين ، وقيل زيارتى الاولى بعشرين عاما كانت احدى سفن اسطول البعوضة قد أنزلت عددا من الملاحين فى دبى ، وبحث هؤلاء عن منزل احد الرجال الرئيسيين المتخصصين فى البنادق ، وكانت هذه السفينة تحاول ايقاف تيار البنادق البغيض عبر البوغاز الضيق • وكانت المعلومات التى تحركوا بمقتضاها صحيحة تماما • ولحق البنادق اختفت بطريقة غريبة ، ولم يستطع أفراد السفينة العثور على بندقية واحدة • ولقد ارتكب قائد السفينة خطأ فادحا حيث بحث فى الأماكن الخاصة بالسيدات دون أن يعطيهم الوقت الكافى للخروج منها • لذلك عندما خرج جنود السفينة وجدوا أنفسهم وجها لوجه ، أمام حشد كبير من العرب المسلمين المشتعلين غيظا وغضباً •

وكان الهجوم العربى شرسا جدا حتى انه لولا أن ردت مدافع السفينة لكان قد تمت اباداة كل المجموعة الموجودة على الأرض ، ومع ذلك فقد ترك الجنود عددا من أمواتهم خلفهم ، ولا شك أنهم تركوا أيضا عددا أكبر من العرب القتلى • ثم تراجع الملاحون الى سفينتهم فى شكل منظم ، وكان هذا هو السبب فى منع أى رجل أبيض من دخول المدينة ، سواء كان موظفا أو طبيبا لمدة عشرين عاما •

ولكن البعثة الطبية هى التى أعادت فتح المدينة ، فقد كان عم حاكم بلدة أبو ظبى مصابا بصدمة شلل ، وأرسلونى اليه ، وكانت هذه الرحلة ناجحة للغاية ، فلم نترك شخصا دون علاج فى هذه البلدة الصغيرة ، وكانت مراهم العظام وأملاح أبوم للامساك من الأشياء المطلوبة بكثرة هناك •

وعندما انتهينا من العمل في ابي ظبي عبرنا الخليج لمسافة ثلاثين ميلا نحمل تحيات من السيد حمدان حاكم ابو ظبي الى السيد سعيد حاكم دبي . الذي رحب بنا ترحيبا عظيما ، وقضيت زيارة ممتعة لبضعة ايام ، وذهبت بعد ذلك لاتمام رحلة طيبة لعدة اسابيع في ام القوين ، وهناك كان الشيخ الحاكم سعيدا بي لدرجة انه اعطاني ساعة ذهبية كبيرة ، وزنها رطل ، تدق الساعات ، وارباع الساعات ، والدقائق ، كل بنعمه موسيقية مختلفة . وقد جهزنا انفسنا لبقاء عدة ايام في الشارقة .

وكان العرض من الرحلة هو فتح شاطئ القرصان ، ويبدو اننا قد نجحنا بالتاكيد ، فقد اقام الحاكم المحلي حفلا هائلا لتكريمي ، وحضر الحفل كل الرجال ذوي الأهمية والنشأ في شاطئ القرصان ، وعندما انتهينا من الطعام قام متحدث المساء ، وألقى خطابا قصيرا ، وطلب ان يعرف ، الى أي قسم في الحكومة البريطانية يجب عليهم أن يرسلوا التماسا ، يطلبون فيه بقائي الى الأبد ، في مكان ما قريب من الشاطئ ، وقال ان هذا الالتماس سيحمل توقيع كل من له شأن كبير في المنطقة كلها .

وفي اعتقادي أن هذه هي أعلى مرتبة وصلت اليها شهرتي . وقد أكدت لهم أنني تأثرت كثيرا بمثل هذا الشعور ، وبخاصة وأن الفترة التي قضيتها معهم كانت قصيرة ، وقلت لهم ان : الالتماس يجب ألا يوجه الى الحكومة البريطانية ، لأنني لست متصلا بها ، وأن البعثة الأمريكية ستكون سعيدة باستلام هذا الالتماس . ولكنه يجب مرور ثلاث سنوات على الأقل قبل أن تستجيب البعثة لطلبهم .

لكن الشهرة عبارة عن قصبة مكسورة ، اذ أنه عندما عدت الى البحرين أرسلت الى مركز بوشهر وقد كنت خائفا ، وخاصة وأني كنت كتبت تقريرا غير مرغوب ، عن حالة العبيد في شاطئ القرصان ، ودائما ما تتسرب محتويات هذه التقارير ، وكما يقول العرب ، انك اذا أغلقت

خزينة على خطاب من هذا النوع وألقيتها في البحر فان خبر هذا الخطاب سينقل الى الأشخاص الذين يتكلم الخطاب عنهم ، وقد أرسل الخطاب الى تلك المدينة التي كنت مشهورا فيها ، وكان هذا ايدانا باغلاق باب شاطئ القرصان في وجهي ، وانقضت سنوات ثلاث قبل أن أتمكن من الحصول على تصريح لزيارة قصيرة له .

وكنت قد توقعت حدوث مثل هذا الشيء ، وحاولت أن أقنع نفسي بالبقاء ساكنا ، فمن ذا الذي يستطيع أن يتطوع من أجل الدفاع عن العبيد في هذه المنطقة اذا لم تكن البعثة التنصيرية ، وقد كانت معاملة العبيد في المزارع معاملة طيبة ، لكن الوضع على شاطئ القرصان كان مختلفا ، فهناك آلاف العبيد الذين يعاملون معاملة قاسية ، وعندما كنت في أبي ظبي حاول ثلاثة من العبيد الهرب الى البحرين ، فسرَقوا زورقا ، ورفعوا شرعاه ، واندفعوا الى البحرين ، لكن الحظ رفض أن يبتسم لجهدهم البائس ، فقبض عليهم ولقى أحدهم حتفه .

وأثناء رحلتنا في المناطق النائية كان العبيد يأتون بعد انتهاء عملهم اليومي ليتكلموا وكى يستمعوا أيضا .

وحينذاك كانت معرفتي باللغة العربية قليلة .

وأحق العبيد بالشفقة هم العبيد البلوش . فقد ثاروا بعنف ضد الأغلال التي تكبلهم ، وقد كانت معاملة العبيد كلهم معاملة قاسية ، لكن الافريقيين منهم كانوا أكثر صبرا ، فرغم ما عانوه من قوة فقد استطاعوا مع ذلك أن يغنوا باستمرار .

وكان أحد هؤلاء العبيد سكرتيرا لسيدته ، لأنه كان يستطيع القراءة والكتابة بينما كان سيده يجهل الاثنتين .

وان ما عاناه هؤلاء العبيد كان أمرا شديدا ، وكان على أن أساعد هؤلاء العبيد على الهرب ، لذا فقد أخبرتهم أنه عندما يحين الوقت سنبدأ ، فاذا سبجوا حتى القارب الذى سافرت عليه فسأدفع لهم وبسعادة أجرة سفرهم الى البحرين ، وسأفعل كل ما فى طاقتى ، لكى أؤثر على القبطان ليقبلهم كمسافرين ، وهذا كل ما أستطيع أن أفعله ، ومع ذلك لم يحاول أحد العبيد أن يأتى معى ، رغم كل التشجيع الذى أعطيت لهم ، والوعد يتحقق حريتهم ، ورغم ذلك مازال العبيد هناك •

وبالرغم مما قد كتبتة عن العبيد فقد عرفنى شاطىء القرصان الآن ، وازدادت شهرتى أثناء غيابى ، عما كانت عليه أثناء وجودى ، ومات ذلك الرجل الذى حرص بشدة على أن أبقى على مسافة قريبة من الشاطىء • وكان هذا الرجل قد أرسل طلبا عاجلا لى ، كى أذهب اليه ، لكن أعقبت الخطاب مكالمة تليفونية من ابنه يخبرنى بأن الطلب ليس له أية فائدة ، فقد توفى والده •

وكانت الرحلة الى شاطىء القرصان دائما نابضة بالحياة ، وقد كانت احدى رحلاتى الى هناك موفقة بشكل خاص ، حيث أتى رسول من شيخ دبى ، وقال لى « ان الشيخ سعيد يريدك ، أن تذهب اليه لعلاج زوجته » فقلت « نعم ، ولكن أين خطابه ؟ » •

واتضح أن الشيخ رأى أن تكون الرسالة شفوية ، فهل أقبلها وأذهب ؟ ، ورغم أن هذه طريقة غير معروفة للعمل فى الجزيرة العربية ولكنى وعلى أية حال بدأت الرحلة مع الرسول الى هناك ، وسافرنا فى الدرجة الثالثة على سطح المركب ، وغيرنا السفينة عند لنجة ، وتغيرت حالة الجو أيضا ، فقد كان الجو عاصفا •

وفجأة طلبنى القبطان وصعدت اليه ، فاذا به يخبرنى بأننى لن

أتمكن من السفر على متن هذه السفينة • وساعتها تيقنت أن هيئة الجنس الأبيض قد تحطمت ، ولكننى أكدت له أنني سافرت على متن سفن كثيرة ، وأن مكتب بومباي قد باع له التذاكر لهذا الغرض ، لكن كلامي معه لم يحقق الغرض ، فاعتقدت أن الهدوء ربما يساعدنى على تحقيق أهدافي ، لكنه أصر على ما قاله ، فاضطرت أن أدفع ثلاثا وعشرين روبية من أموال المستشفى لخزانة السفينة حتى سجلونى كمسافر بالدرجة الثانية •

ونزلت من عند القبطان ، ولكننى فوجئت برئيس ضباط السفينة يخبرنى بأن القبطان يعتذر ، لأن قمرة الدرجة الثانية الوحيدة بها مضجعان يشغلها أهل المدينة ، وأن القبطان قد فتح قمرة بالدرجة الأولى من أجلى ، فأخبرت رئيس الضباط والقبطان أنه إذا كان هناك أحد من أهالى المدينة بقمرة الدرجة الثانية فهذا لا يضايقنى بالمرّة • وجلست على ظهر السفينة ، وكان الهواء عذبا ، والصحبة التى ترافقنى ملائمة لمزاجي وطبيعتي ، فقضيت وقتا طيبا في هذه الليلة وتبادلنا الكثير من القصص الطريفة المسلية •

وشاء الحظ أن أرجع من تلك الجولة على نفس السفينة ، وذات ليلة عانى أحد مهندسى السفينة من الدوسنتاريا ، وظن زملاؤه أن سيموت • ولكن العلاج حقق المعجزة ، واعترفت المجموعة بالجميل ، ووصلت هذه الأخبار الى القبطان الجليل الذى لم يرسل الى هذه المرة ، وبعد انتهاء الرحلة ودعنا الأصدقاء الأعزاء •

وكان أهم ما في هذه الرحلة على الإطلاق مقابلتي للسيد نصر في عجمان ، وهو واحد من نبلاء العالم النادرين ، وكان قد بلغ الثمانين من عمره في ذلك الوقت ، وقد وضع على أكتاف ابنه بعض مسؤوليات تجارة وبيع وشراء اللؤلؤ ، والسيد نصر هذا رجل ثرى لكن ثروته لا تبلغ شيئا أمام ثروة أحد رجال المال البارزين في دبي ، وقد ذهبت اليه في عجمان

لأستأصل حصوة في المثانة ، ونجحت العملية نجاحا باهرا ، واسترد السيد نصر عافيته خلال عشرين يوما .

عندئذ لم يفكر السيد نصر في نفسه فقط ، بل ألح على أن أكرس وقتي للمجتمع . . . وكى يثبت صدق الحاحه أنشأ مستشفى من عصي النخيل . . . به نوافذ يبلغ ارتفاعها عشرين قدما ، وكان هذا المستشفى هو أكثر الأماكن راحة في الحر ، ويبلغ عدد المرضى فيه من ثلاثين الى خمسين مريضا .

وقد قدم السيد نصر للمستشفى الأسرة الى الذين يحتاجون اليها ، وكذلك الأغذية التي كانت تستخدم كفراش ، وفي كل صباح ومساء كان يرسل العبيد يحملون أواني البن الكبيرة والخبز وأشياء أخرى ، وهكذا يستطيع كل مريض أن يحصل على الوجبة الغذائية التي يأمر بها الطبيب ، وقد أخبرني السيد نصر ذات يوم قائلا « اننى أتلف الى الحسنة التي يمنحها الله لي ، وسأستمر في مساعدة الآخرين بقدر ما أستطيع » .

وقد رأيت في الجزيرة العربية كثيرا من الرجال النبلاء ، لكنى لم أعرف أبدا شبيها أو مثيلا لنصر . وكان من عادتي أن أجلس معه وأناقشه في أخلاق التجارة .

وكانت تجارة اللؤلؤ قد بدأت في التدهور بسبب المنافسة اليابانية ، لذلك انخفضت أسعار اللؤلؤ ، وكان نصر يملك ثلاثين قاربا لصيد اللؤلؤ ، وكان مسئولا عن جميع أفراد العمل في هذه القوارب حتى وقت انخفاض ثمن اللؤلؤ ، فقد كان يتحمل هو الخسارة ، وكان يقول : حقا ، قد أخسر لكنى مسئول عن الرجال ، ويجب أن يحصلوا على حقوقهم ، ولا أصدق أن الله يتركنى أخسر دائما .

وفي المستشفى الذى أنشأه السيد نصر قمنا بالكثير من العمل ، فقد كانت شرفات المستشفى مليئة بالمرضى وكانت درجة الحرارة هى أسوأ شئ جربته وعرفته فى الجزيرة العربية ، فقد كنا جميعا نعمل ونعيش ونحن مجردون من الثياب حتى الخصر ، وفى مثل هذا الجو الرهيب كان اجراء العمليات الجراحية من أصعب الأشياء •

وفى أصيل ذات يوم عندما كنت أعمل فى حجرة صغيرة للعمليات كانت الشمس تسقط أشعتها على السقف فوق رأسى تماما ، وكان الجو مشبعا بالبخار تماما مثل حجرة غسل الملابس ، ووجدت نفسى أتسابق مع الظلام الذى أوشك أن يعم الحجرة عندما كنت أضع الغرزة الأخيرة لجرح فى الجلد لعملية فتق • وبما تبقى لى من عزيمة اقتحمت الباب قبل أن يزداد سواد الحجرة فاصطدمت رأسى بشدة بعتبة الباب العليا ، فأغمى على ، وجلست على الرمال فى الخارج أستعيد عافيتى •

وذات ليلة فى التاسعة مساء سمعنا نحييا وأنيبا خارج باب المستشفى ، وفوجئنا برجل يزحف على يديه وركبتيه وهو عار تماما ، لقد كان الرجل يعانى من اختناق الفتق ، وكان الألم فظيحا ، فسقطت أجزاء ثيابه الواحدة تلو الأخرى ، ولا يعرف هو أين سقطت ، المهم أن الألم ازداد سوءا حتى كاد الرجل يفقد عقله ، وعلى مسافة مائة ياردة من المستشفى سقط من على حماره وأكمل الرحلة على يديه وركبتيه ، ورغم أنه لم يكن واعيا تماما ، بسبب الألم الشديد فقد استمر فى الزحف حتى وصل إلينا •

كان المستشفى بجوار البحر ، فاخترت ستة من الرجال الأقوياء من الذين كانوا يجلسون مع المرضى كأصدقائهم ، كى يحملوا هذا القادم الجديد ويغطسوه فى ماء البحر عدة مرات لغسل الرمال ، وجهزنا نحن حجرة العمليات •

وبعد عمل استمر نصف ساعة أنجزنا العملية ، ووضعناه على سرير ، وكان بعض المسافرين الأمناء قد أحضر ثيابه عندما رآها في الطريق ، وعاد الرجل سليما معافى الى بيته بعد أسبوعين ، وهو مؤمن بالبعثات الطبية وعملها •

أما وقد وصلنا الى حالات الفتق فسوف نتحدث عنها قليلا ، فليست كل حالات اختناق الفتق كمثل هذه الحالة الأليمة التي وصفتها سابقا ، لكنها جميعا تتميز بالخطورة ، وتعتبر حالات الفتق هي الحالات الطارئة الخطيرة الأكثر تكرارا ، والتي رأيناها في عمان ، وكل حالات الفتق مهددة بحدوث اختناق ، رغم أنه يجب القول ، أن حالات قليلة هي التي تصل الى هذه النهاية المشؤومة •

ويسبب اختناق الفتق ألما شديدا ، لكن الألم يعتبر علامة جيدة ، فهذا الألم الذي يحدث في البطن يكون بسبب الانتفاخ ، وقليلا ما يحدث بسبب أى شيء آخر ، فان الجزء الذي لا تكون فيه حياة من الأمعاء لا يسبب أدنى ألم ، مهما كان الانتفاخ ، لذلك ينزعج الجراح عندما لا يكون الفتق مصحوبا بالألم •

وعندما كنت في مستشفى الكويت جاءنى حالتنا فتق ، وصلت الثانية بعد الأولى بنصف ساعة ، شكأ أحد المريضين من آلام شديدة ، واستطعنا أن نخفف بسهولة آلام هذا المريض ، أما المريض الآخر فلم يكن يشعر بأى ألم ! فقد كانت الغرغرينا قد أصابت كل أمعائه ، لذلك ، لم يشعر بأى تحسن •

وحالات اختناق الفتق تؤدي الى نهاية خطيرة ، ولكن الوقت هو العامل المحدد في كل حالة ، واذا استطعنا اسعاف الانسداد قبل أن تموت الأمعاء يشفى المريض ، كما يحدث في حالة الفتق العادية ، واذا بدأت

غريتنا الأمعاء يكون الموقف مختلفا تماما ، ويجب استئصال الأمعاء الميتة ، ويجب أن يكون العلاج الطبى هو الطريق الوحيد ، وقد كنا فى مطرح عندما تظهر حالة من حالات اختناق الفتق نوقف أى عمل آخر فى المستشفى ، سواء أكان الوقت ليلا أو نهارا ، وكنا نطلب من مرضى العيادة أن ينتظروا ساعة اضافية ، وتتجمع كل الأيادى فى حجرة العمليات على أمل اجراء العملية لهذا المريض فى خلال خمس عشر دقيقة من وصوله ، سواء كان نهارا أو ليلا •

وقد كان الحظ حليفنا فى نتائج هذه الحالات ، ولكن النتائج الممتازة لهذه العمليات التى كنا نحصل عليها بعد معاناة الألم الشديد ، والذي يكون فى هذه الحالة أكثر العلامات السارة ، وتكون سعادتنا لا حد لها فى حالة بعد أخرى عندما نرى الأمعاء وهى تسترد لونها ، وهى تتغير من اللون الأرجوانى القاتم ، الذى يعنى أن الدورة الدموية راكدة ، الى اللون القرنفلى الطبيعى ، الذى يبدو للجراح ، فى ذلك الوقت ، أجمل لون فى العالم •

والشئ العجيب هو أنه اذا جاء المريض بدون تأخير فلن نجد صعوبة ، ولكن أصدقاء المريض ينصحونه دائما بتجنب العملية الضرورية ، وكذلك فالتهاب الزائدة الدودية يتحسن اذا أسرع المريض باجراء العملية ، أما اذا أهمل المريض حالة اختناق الفتق فالموت يكون هو النتيجة الطبيعية للاهمال •

وفى الأيام الأولى للعمل فى مطرح قمنا بعلاج حالة اختناق ، توضح ما قيل فى هذا الموضوع ، وما سنقوله ، ذلك حين أرسل أحد التجار الهنود فى المدينة استغاثة عاجلة عند حلول الظلام ، وقد كان يعانى من حالة اختناق الفتق ، ولكن من سوء الحظ كان يشعر بألم أقل من المعتاد ، وكان قد مضى على اختناق فتقه اثنتا عشرة ساعة حين رأيت ، فألحمت

عليه ألا يدع أى شيء يمنعه من اجراء العملية فى الحال ، وقد رضى ، ولكنه قال نعم لكى يتخلص منى •

وبعد عمل الترتيبات لنقله السريع ذهبت الى المستشفى ، وتم تجهيز كل شيء دون تأخير •• لكن الحملين أتوا دون المريض ، وقالوا ان أحد أصدقائه اقترح عليه بعض الوصفات المحلية المعروفة لدى الهنود ، وأن نجاح هذه الوصفات مؤكد دون الرجوع الى السكين ، يقصدون الشرط ••• وقد سبب لى هذا ألما شديدا ، فعدت الى منزل المريض وشرحت له للمرة الثانية أننى أخشى العاقبة اذا انتظر أطول من ذلك ، لكى كنت كلما جادلته ازداد ثقة بأن هذه العملية غير ضرورية •

وانتظر هذا المريض يومين ، وفى التاسعة مساء أحضروه ، وقد كان نبضه ضعيفا ، وكان الألم قد توقف منذ وقت طويل ، وكان مساء عصيبا ، فقد كان حاكم المدينة يتناول العشاء معنا ، وقطعنا العشاء لوصول هذا المريض •

لقد كانت السماء تمطر ، وكان المطر غزيرا ، فالطر يسقط فى مطرحة مرة واحدة كل عام وأحيانا لا تمطر •• ولكن حينما تسقط الأمطار تكون غزيرة •• وبسبب ذلك ترشح أسقف المنازل فى المدينة ، وبالتالي كان سقف المستشفى يرشح هو الآخر ، وبحثنا عن مكان ملائم وضعنا فيه منضدة العمليات ، وبدأت العملية وبعد مجهودات مضنية فى ذلك الجو الغريب وتلك اللحظات الحرجة ، نجحت العملية ، وبعد أربعة أيام كان المريض يتمتع بحركة طبيعية للأعضاء ، ولكنه مات بعد عشرة أيام •• وكان السبب الوحيد لوفاة هو إبطؤه فى اجراء العملية •• وكان البطء فى اجراء العمليات هو نفس السبب فى وفاة الكثير من المرضى •

وتحدث حالات اختناق الفتق بجميع حالاته فى عمان ، وعلاوة على

ذلك ، فعندما تختنق حالات الفتق الضخم يصبح المريض في حالة خطيرة ، لقد كانت حالة فتق صديقي الهندي بسيطة ، وكان حجم الفتق أقل من بيضة الأوزة ، واندحشت عندما وجدتها تحتوى على أمعاء ملتفة يبلغ طولها ست بوصات ، وتحملت صحته ذلك لعدة أيام ، ولكن عندما يكون الفتق كبيرا فانه لا يمكن اسعافه بأية طريقة •

لا ينبغي أن نقطع كلامنا عن موضوع اختناق الفتق عند تلك النقطة ، ففي العام الماضي جاءت حالة لطيفة ، وهى حالة طفل رضيع ، وسلمنا بما سمعنا من أنه ورث هذه الحالة •• ولقد كان الخوف واضحا في عيني أمه ، وعندما أخبرتها أنه لابد من اجراء عملية سريعة له •• وقلت لها ان دلائل النجاح أكيدة ، فالألم مازال شديدا ومنقطعا ، ومضت عيناها بالخوف ، فحمله والده الى الداخل ، وبدأت العملية ، وامتد قليل من خوف الأم وفزعها الى داخل نفسى أنا الذى تجرأت ، وأعطيت تقديرا طيبا لما يحدث للعمل الذى بين يدي ، وأمامى فى الميزان طفل رضيع مثل هذا ، وأمه هى القاضى •

كان يمكن تبرير الخوف فى عيني الأم ، ولكن لا مبرر للخوف المثبط للهمة الذى يشغل قلبى •• ووجدت مفصلا صغيرا للقناة الهضمية يضغط بشدة على فتحة الفتق الصغيرة التى رأيتها ، واستعادت الأمعاء لونها خلال ثوان قليلة بعد زوال الضغط وأعطيناه كمية كافية من الكلوروفورم لتقليل معارضته النشطة •• وبعد آخر غرزة فى الجرح عاد الطفل يستأنف افطاره الذى كان قد انقطع عنه •

ونجح مجهود السنوات العشر ، وقد فتحت البعثة الطبية شاطئ القرصان ، ومن خلال هذا الباب يصبح الدخول الى عمان ممكنا ، وعندما توفر للبعثة طبيب بعد تأخير طويل ، قرروا اعادة فتح المستشفى فى مطرح - ولقد برهن الوقت على أنهم على حق - بأنه يمكن فتح عمان من ناحية مطرح ، فهى مركز رئيسى لذلك اذ أنها هى الموقع الأفضل •

الفصل الخامس

اعادة فتح مسقط

احتفظت البعثة أخيرا ببعض الأطباء الاضافيين ، وتم ارسال الأطباء الجدد الى المكان الذى بدأ العمل فيه منذ وقت طويل ، وكانت مهمتى هى اعادة فتح مستشفى مسقط ، وحدثت مناقشات هامة قبل اتخاذ القرار باعادة فتح المستشفى فى مطرح ، وقد شملت هذه المناقشات القواعد الأساسية الهامة ، ولكن انخفاض تمويل البعثة سبب شعورا بصعوبة القيام بمسؤوليات جديدة .

ان من الخطأ أن تحاول توزيع طبق من العظم لا يكفى أربعة كلاب على خمسة . ولكنها كانت محاولة عقيمة ، بل كانت فكرة خطيرة حتى بالنسبة لمؤيديها . فطبق العظم لا يكفى أربعة كلاب ، بل انه فى الحقيقة غير كاف لكلب واحد ، وستكون الخطوة الأولى تجاه تنفيذ هذه الفكرة هى اغلاق كل المستشفيات التابعة لنا ، ويكون بلوغ الدعم المالى - على الأقل الى ربيع مليون فى السنة - مناسبا لمستشفى واحد .

ومن الأفضل لنا أن ننظر الى أن المثل الأعلى للدعامة الى النصرانية هو المستشفى ، الذى يمد كل من يحتاج الى الراحة الطبية عن طريق الطب الحديث ، وعن طريق الأمريكيين الأغنياء الذين يدفعون فاتورة الحساب ، ويتكلف هذا مبلغا كبيرا من المال لتقديم أفضل نتائج الطب الحديث ، وان كنت على أية حال لست واثقا مما اذا كان مثل هذا البرنامج مستحيلا . وربما كانت هناك بعض الأماكن التى نستطيع فيها انجاز هذا البرنامج بنجاح اذا قمنا بالضغط الاعلامى الصحيح لحث أصحاب الملايين الأمريكيين على التبرع بأموال أكثر .

والسبب الوحيد الذى جعل تنفيذ الفكرة مستحيلا ليس هو عدم
حصولها بالموضوع ، أو لأنها خيالية ، فقد كانت المستشفى تدعم نفسها من
الناحية العملية منذ البداية ، لكن هذا التدعيم الذاتى لم يكن كاملا •
فمرتّب الطبيب فى البعثة الطبية التنصيرية يأتى من أمريكا ، وتساعد
جمعيات للتنصير عديدة بصناديق للإمدادات الطبية والجراحية ، أما مبنى
المستشفى فهو هبة من البلد نفسه ، وقد أدت المعونات غير المنتظمة من
وقت لآخر الى التحسن المستمر للمعدات ، والى تأدية بعض الأعمال الأخرى
مين زراع التمر •

ولكن المصاريف الجارية للمستشفى قد تقابلت مع الأجر الذى يتم
جمعها من المرضى ، ونحن لا نطلب من كل فرد أن يدفع مبلغا ضئيلا ، ولكن
عندما يأتى أحد الأثرياء الى العيادة فنحن نطلب منه أن يدفع للأشخاص
الأربعة الذين سبقوه ، وللخمسة الذين يتبعونه ، وما يحدث بالفعل هو
أن الأجر الناتجة من العمليات ، والكشف الخارجى تتحمله العبء كله ،
وما يحدث أيضا هو أن تحديد الأجر شىء ، أما جمعها فهو شىء آخر
تماما ، وقد قضى مساعدنا الأول جزءا كبيرا من وقته وطاقته فى جمع
هواتير المستشفى ، وتم تأسيس المستشفى أمام المتاجر الأخرى فى
المدينة فى صراع من أجل البقاء ، فلدينا خدمات نبيعها ، وهى خدمات
جيدة ، ولكننا نبيعها بثمن زهيد ، وكان للعون الذاتى نتائجه الحسنة
على المستشفى ، فبيع خدماتنا يعتبر أمرا صحيحا تماما •

وقد أدى الجهود الشاق الذى بذله العاملون فى المستشفى لجمع
الأجر ، وتجنب الافلاس الى الوصول بهم ليكونوا أعضاء فى المجتمع
على قدم المساواة مع جيرانهم •

وقد أصبحت الحالة المالية عسيرة أكثر مما مضى ، وانقضى عهد

الرخاء القديم ، فلم تعد أمريكا تشتري التمر العماني ، وكذلك لم يعد البلوش يشترون البنادق ، فقد انتهت الحرب الكبرى منذ أمد بعيد .

ودخلت البضائع اليابانية مثل الفيضان ، فهي رخيصة من ناحية ، ونوعيتها جيدة جدا . . . فمنذ زمن بعيد لم تتوافر مثل هذه الألوان ، وبمثل هذه الأسعار . . . وقد تم تصدير الأقمشة اليابانية التي وصلت إلى درجة عظيمة ، ولم ينجح أحد في كساء الرجال أو النساء أو في توفير عشر الكمية التي نجحت الآلات اليابانية في توفيرها بطريقة بارعة ، لكن الفقر ازداد مع الملابس الزاهية ، فلم يجد عمال النسيج أى عمل ، أو مكان يذهبون إليه ، سوى حدائق البلح ، حيث يسود الجوع ، وبقي عدد قليل من الحائكين فقط .

ولجعل اللعب أكثر ثقلا . . . فرضت ضرائب جديدة باهظة . . . فالحكومة يجب أن تحصل على أموال أكثر ، حيث يجرى بناء مدرسة جديدة في مسقط ، وهناك خطط لبناء مستوصفات حكومية مجانية ، ويجرى بناء الطرق باهظة التكاليف .

وتعتبر الضرائب شيئا جديدا في عمان ، وقد كانت الرسوم الجمركية هي التي تجلب فيما سبق دخلا كبيرا ، أما الآن فقد انخفض دخل الرسوم الجمركية جدا ، اذن يجب أن يزيد الدخل عن طريق الضرائب ، وقد قال لى رجل عجوز جليل ، لقد دفعت في العام الماضى عشر روبيات ضريبة ، وكانت هذه النسبة كبيرة ، ولكنى اضطررت هذا العام الى دفع ستين روبية ، ونتيجة لذلك رحل ملاك الحدائق الى زنجبار ، أو الهند ، أو الى أى مكان آخر حيث تقل الأعباء .

وكانت مسألة بناء مستشفى يدعم نفسه بنفسه مهمة قاسية جدا ، حتى اذا كان هدفنا هو بناء مستشفى متواضع للغاية .

وقد ظل أحد زملائنا في مطرح يعمل بعشر سنتات ، أو باثنى عشر سنتا في اليوم ، لمدة أشهر ، رغم أنه كان عاملا ماهرا ، فقد كان يعمل نصيب الوقت فقط ، ولم ننجح مطلقا في رفع دخلنا أكثر من مائة وخمسين وأربعين روبية سنويا ، وكنا أحيانا نشتهي الأيام الماضية في البحرين ، وننظر اليها عندما يأتى الينا بين الفينة والفينة أجر بألف روبية •

وأعلى أجر حصلنا عليه في مطرح هو خمسة وثلاثون دولارا ، وكانت تمر شهور وشهور الى أن يرتفع دخلنا فوق خمسين روبية ، أى أقل من عشرين دولارا •

وكان بعض المرضى يأتون الى المستشفى وهم لا يستطيعون دفع أى مبلغ ، بسبب حالتهم الاقتصادية السيئة ، وذات يوم جاءت إحدى السيدات من قريات ، التى تبعد خمسين ميلا ، وكانت ساقها تحتاج الى بتر ، ولم يكن لديها ما تدفعه ، وفوق هذا كان على المستشفى أن توفر لها طعامها مدة اقامتها ، لتمنعها من الهلاك بسبب الجوع •

ومثل هذه الحالات أمر شائع ، ومعظم المرضى يدفعون مبالغ ضئيلة ، ورغم ذلك بدت الأجور بالنسبة لهم مرهقة رغم ضآلتها بالنسبة لنا ، وكانت هذه الأجور تشمل أشياء كثيرة خطيرة •• فلو قدرنا الأجر المتوسط للعملية بعشر روبيات ، وهذا حسن جدا ، فماذا نستطيع أن نقدم للرجل مقابل عشر روبيات ؟ هل نستطيع علاج فتقه ؟ ان العملية تحتاج الى صابون بخمسة سنتات ، ومخدر شوكى بخمسة عشر سنتا ، وحرير بخمسة سنتات ، وكبروسين بعشرة سنتات • وتتكلف الهيئة العامة بالمستشفى ثمانى روبيات يوميا ، ويقيم المريض بالمستشفى خمسة عشر يوما وهكذا تكلفت عنايته في المستشفى ست روبيات ، وهكذا أنفقنا عليه ثمانى روبيات ، وربما احتاج قبل تمام شفائه الى دواء ، ثمنه روبية ، مثل الكينين ، هذا اذا لم يحتاج الى أى شىء آخر ••

وكنا نأخذ من المريض روية واحدة ، هذا اذا كان يطعم نفسه أو اذا اعتنى به أصدقاؤه ، أو اذا أحضر فراشه ، وأوانى الطهى الخاصة به ، ولم يطلب شيئا سوى العملية والعناية الجراحية للجرح بعد العملية • ولكن هل تعتبر ادارة مستشفى على هذا النحو أسلوبا شائنا ؟ على العكس ، فهى الأسلوب الأمثل ، وسوف تتحسن أمريكا اذا فعلت مثلنا • فالمرضى يأتى الى المستشفى ومعه الجو النفسى لحياته اليومية • فماذا نتوقع من المريض أن يمضى يومه ؟ يمضيه وحيدا ، ينظر الى الحوائط البيضاء الباردة والسقف المربع المل • ولكنه اذا جاء ومعه مناظر من منزله تعود عليها ، وكذلك رائحة بيته وفراشه فقد يكون مفيدا له ولنا ، حقا فى أحيان معينة كان ذلك يبدو لنا شيئا غير مقبول ، وكنا نحاول أن نصح شيئا ما ، لكننا لم نكن لنسهر كل الليالى نحاول أن نحسن ذوق المريض ، أما البيئة النفسية التى اعتادها المريض وأحضرها معه فقد كانت تشعره بأنه طبيعى وسعيد ، وهذا يعنى أنه ليس خائفا ، ويعنى أيضا أنه سيشفى •

ولكن هناك حقيقة يجب ألا نغفلها ، وهى أننا اذا وضعنا مستشفيات أمريكا فى نيويورك وبوسطن مثلا نصب أعيننا فلن نستطيع القول بأن ما بمطرح تسمى مستشفى • • ففى حقيقة الأمر ما لدينا فى مسقط هو منزل للعناية بالمرضى ، وليس مستشفى كما يقول الانجليز ، فهو منزل يستعيد فيه المرضى — الذين أجريت لهم عمليات — صحتهم •

والفرق بين منازل الرعاية فى لندن ومنازل الرعاية الصحية التابعة لنا ، هو أنه لا يوجد راديو فى كل حجرة ، ولا أسرة أيضا ، ولا شيء آخر • • ولكن فى هذه الحجرة التى تبلغ مساحتها اثنى عشر قدما يوجد ركن واحد مملوء بكيس كبير للفحم وكمية من أخشاب الوقود • • وفراش فوق الأرض • • والمكان نابض بالحياة ، وبالزوجات ، أو على الأقل واحدة ، وأحيانا بالأطفال الكثيرين ، ودائما توجد الأوانى ، وقسدور

القهوة .. وأهل المريض يقومون بشراء أصناف الطعام ، ويقومون أيضا بعملية الطهي في نفس المكان ، ويقوم هؤلاء الأقارب ، نساء كانوا أو رجالا ، بالعناية بالتمريض على وجه كامل .

وبالتأكيد لن تجد مثل هذا الجو المتفائل السعيد في أية مستشفى في أمريكا أو إنجلترا ، كما تجده في هذا المكان البدائي ، حيث يرقد المريض على الأرض ، وتعتنى زوجته به هى وأرقابه الآخرون ، وينامون معه ، ابتداء من زوجته وحتى طفله الرضيع ، ويقضى الجميع وقتا طيبا .

والحواجز التى تفصل بين الحجرات لا تصل الى السقف ، فتكون التهوية بهذه الطريقة أفضل . ويستطيع أى فرد أن يسمع ما يقوله الآخر ، ويكون مهرجان الحديث في أول المساء صاخبا ، وأتذكر أن أحد المرضى الجدد كان قريبا لقائد الفرقة المحلية للموسيقى ، وأثناء دور نقاهة هذا المريض كنا نستمع الى الموسيقى كل ليلة تقريبا ، حتى اننا فكرنا أن نسن قانون ناقوس الساعة العاشرة ، حتى يستطيع المرضى الآخرون أن ينالوا قسطا من النوم .

أما في الصباح فالمنظر يكون رائعا حيث يبدأ صنع القهوة في كل حجرة من الحجرات ، ومعها الخبز والتمر ، ثم نبدأ جميعنا في تبادل حسن الضيافة جيئة وذهابا .

ويجتمع المرضى والمرضات في حلقات صغيرة بسيطة ، لتبادل القيل والقال ، وكان المتيسرون من المرضى يقومون باطعام الفقراء ، وقد أنشأنا هذا المستشفى ، وفي ذهننا هذه المجموعة الكريمة من المرضى ..

وهناك ميزة جيدة لوجود الحجرات في صف طويل ، ففى داخل

الحجرات يستطيع الانطوائيون أن يحبوا العزلة كما يشاءون ، أما في الشرفة فالمرحون يجدون الشعبية كما يريدون ، ويتجه الاقبال دائما نحو المرحين •

ولكن من المذهل معالجة المرضى بهذه الطريقة ، فالأرض صلبة وقاسية ، اذن كيف يمكن شفاء الناس بهذه الطريقة ؟ وانه من العجيب أن مرضى مطرح لا يفكرون هكذا ، ففي ذات يوم توسل الينا شيخ من بلوشستان أن يتحرر من عقاب السرير الذي منحناه له ، فقد وجده متعبا جدا ، فسمحنا له أن يرقد على الأرض ، ومنحناه هذه النعمة الكبيرة في الحال ، وقمنا برفع فراشه ، ووضعناه على الأرض الصلبة المصنوعة من الإسمنت حيث نام سعيدا منذ ذلك الحين •

وقد شعرنا في هذا المكان البدائي أننا وقعنا في قبضة أكبر مشكلة محيرة للطب الحديث ، وهي مشكلة جعل الطب في متناول الرجال العاديين ، ولا شك أن المشكلة أمامنا كبيرة بكثير مما قبله الأطباء الأمريكيون ، ففي أمريكا ترتفع رسوم المستشفى والأجور تبعا لقدرة الناس على الدفع ، حتى اذا كانوا يأخذون خمسة دولارات يوميا — لا عشرة سنتات — وفي مطرح أدرکنا أن الاكتشاف الطبي لا يعتبر كاملا حتى يصبح في متناول الناس الذين يحتاجون اليه •

ولم نستطع أن نجعل وسائل الطب الحديث في متناول الرجال الذين يكسبون عشرة سنتات في اليوم ، لكننا بدأنا بالفعل ، فقد أجرينا عمليات مثل حالات الفتق •• واستئصال الزائدة الدودية ، وعمليات في الجهاز

الهضمي ، واستئصال المرارة ، والحويلة الصفراوية ، وعمليات في
المثانة ، وأخرى لاستئصال غدة البروستاتا ، كل هذا مقابل عشر روبيات
للعملية .. لكننا لا نستطيع القيام بعمليات العظام ، فليسوء الحظ لم يكن
من الممكن أن نجعل المرضى يبقون مدة كافية كي نحاول اجراء عمليات
العظام ، لأنها تحتاج الى وقت طويل بصرف النظر عن الأجور •

الفصل السادس

هيئة المستشفى الادارية

تكلت المستشفى فى مطرح خمسين ألف دولار ، واستغرق انشاؤها سنتين ، والمنشأة المعروفة باسم فوكس ميموريال هوسبيتال لا تعتبر مبنى ، وانما هى مجموعة من الرجال ، أهمهم على الاطلاق سيدة ، أو بالأحرى ملاك أتى كى يضيف مسحة من النور والجمال على بقعة من بقاع العالم الصحراوية ، ويحاول كل عضو من أعضاء الهيئة أن يضيف على عمله شيئا من روحها ، وهذه هى « مسز هاريسون » ، وسيأتى الحديث عنها فى الفصول القادمة ♦

وبعيدا عن العنصر البشرى الذى يكون الهيئة فالمستشفى محلية ، ما عدا رئيس المجموعة الذى يستطيع أن يتكلم القليل من الانجليزية ، ويجهل أعضاء المستشفى القراءة والكتابة ، وهم يرتدون ثيابا طويلة من مسقط وكذلك قبعات مطرزة ، ويتحدثون بلغة أهل مسقط ، وهذا يعنى أن يكون أمامك الايرانى ، والعربى ، والبلوشى ، والهندوستانى ، وقد عرفنا الأمراض المحلية تماما ♦

تعتبر دى المركز الجنوبى العالمى لصيد اللؤلؤ ، وكانت مركزا للظلم والوحشية ، فكان شيخها الحاكم ضعيف الشخصية ، ولذا فقد كان يفعل ما يراه صحيحا من وجهة نظره ، ويفعل أصحاب سفن صيد اللؤلؤ ما يروونه صحيحا أيضا ، أما الغواصون فكانوا يفعلون ما يطلب منهم ، وكان عدد الغواصين كبيرا ♦

وكان قبطان مركبة صيد اللؤلؤ في دبي أشد الرجال صرامة ، وأكثرهم شرا ، فهو رجل ضخم البنية ، وقوى ذو شخصية متأسدة وقاسية ، وكان عندما يفشل أحد الغواصين في أداء بعض الأعمال الثقيلة عن عمد ، فانه يلقي بجسده الى البحر تأكله أسماك القرش ، فيسرى بين الغواصين الآخرين شعور بالرعب ، لكنهم لا ينطقون بكلمة واحدة تدل على الاحتجاج ، وقبطان السفينة يعتبر هو القيصر ، فعندما أصابت الماريا أحد الغواصين ولم يستطع القيام بعمله اليومي ألقاه القبطان الى البحر ، وللمرة الثانية امتلأ الغواصون رعبا ، ولكنهم لم ينطقوا بكلمة •

وأخيرا صمم الرجل على الانتقام من هذا القبطان ، وفي الصباح بينما كان يغتسل للصلاة طوقوه ، وفي الحال ربطوه بالحبال في صارى المركب ، وتولى المتمردون أمر السفينة ، وحولوا مسارها الى بندر عباس ، ورفضوا اعطاء القبطان قطرة ماء ، وتركوه مكبلا تحت وهج الشمس القاسى طوال النهار • وعندما وصل الرجال الى بندر عباس هربوا جميعا ، وبدأ القبطان يعد الخطة للانتقام منهم •

وكان لرئيس المجموعة التى انتقمت من القبطان ثلاثة أولاد اتحدوا بعد وفاة والدهم ، وهم مبارك ، ومحمد ، وكومبار •

وعمل مبارك في المستشفى وحقق نجاحا كبيرا ، وتمتع كومبار بعبقرية حقيقية ، وتعلم كثيرا في المستشفى ، أما محمد فكان رئيسا لقسم النقل الميكانيكى في المستشفى ، وقد بدأ حياته في مهنة صيد اللؤلؤ •

وصيد اللؤلؤ هذا يعتبر مهنة غير جذابة ، فالصياد يعمل خمسة شهور من العمل المتواصل ، ويحقق ربحا كبيرا في هذه الشهور ، ولكنه لا يعمل في أشهر الشتاء ، وقد صمم محمد على ألا يعود لصيد اللؤلؤ

يعد تجربة العرق الأليمة التي مر بها عندما غمر الخليج واحد من الأعاصير
الشديدة •

ازداد العمل في المستشفى ، واحتجنا الى عمال آخرين ، فرشح
الاخوة الثلاثة النوبى •• وهو رجل يعد برهانا جيدا على أن الروح
الانسانية تملك قوة لا يمكن تحطيمها ، وجمالا لا يمكن طمسه •

كان النوبى هذا قد سرق ، وهو رضيع ، من بلوشستان ، وتم بيعه
للعرب البدو في عمان ، ولكن روحه لم تذعن ، وحاول الهرب أكثر من
مرة ، وكان يقبض عليه في كل مرة حتى منحه القنصل البريطانى في مسقط
حريته •

ان العبودية لشيء بغىض ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يفترض أن
نتيجة الرق هي روح متوحشة وشخصية محطمة ، فمن الصعب قهر نبل
الروح الانسانية ، وقد اكتسب النوبى من المعاناة حلاوة الروح وتعاطفا
مع الذين يذوقون العناية المير ، وجعلنا النوبى مسئولا عن حجرة القرحة ••
وكان النوبى قد تعلم الصبر والدمائة من أيام رقه ، وكان صديقا لكل
حالة قرحة في المدينة •

وجاءنا والوك في المستشفى وكان يعمل قبل ذلك كمراكبى ••
وكان والوك هذا يفعل كل شيء يستطيعه ، وكان يحتفظ بنظافة المكان ،
وكان في الواقع جوهرة •

الفصل السابع

صحة العائلة

تعتبر الزيجات علاقات سعيدة ومنتشرة في مطرح ، والعرس يقام هناك على الطريقة العربية ، حيث يسير موكب الزفاف في أنحاء الشوارع المختلفة ، وتبدأ النساء في انشاد أغاني السعادة حين يأخذن العروس إلى بيتها الجديد ، وهن يعبرن عن ابتهاجن بالحدث السعيد .

وفي العائلة العادية يعمل الزوج طوال اليوم ليكسب بضعة سنتات ، وتقضى الزوجة يومها في المنزل ، تصنع الطعام ، والملابس ، والحالة الاقتصادية للعائلة سيئة ، فالأجر اليومي لا يزيد عن عشر سنتات في اليوم .

ولا يزيد ثراء ملاك الأراضي في عمان ، فالأثمان زهيدة جدا ، لدرجة أن كثيرا من ملاك الأراضي يخسرون أموالهم ، والطبقة الوحيدة الثرية هي طبقة التجار ، وفي أحيان كثيرة ينهار كثير من التجار ، ويعلنون إفلاسهم ، لكن استطاع عدد قليل من التجار هناك أن يصبحوا مليونيرات في هذه الأرض التي تتسم بالحالة الاقتصادية السيئة ، والسوق الحرة في عمان لا ينتج مليونيرات ، بل ينتج تجارا متوسطي الثراء ، فالحقيقة أن السوق ليست حرة كما يبدو .

وفي عمان يجب أن يشتري كل انسان من المكان المدين له ، فيبيع صاحب الأرض ثمرة للتاجر المدين له ، ويبيع له الصياد سمكه ، وقد استطاعت المهارة في استمالة الدين واستغلاله أن تخلق المليونيرات في

مطرح ، ولكن هذا النظام وصل بعدد قليل من الرجال الى أن يصبحوا مليونيرات ، ولكنه جعل عددا كبيرا منهم فقراء ، واستطاع المرابون الهنود أن يشاركوا فى نسج هذه الشبكة المخيفة ، ونتيجة هذا هى أن صاحب الأرض مدين لتاجر الجملة ، فهو لذلك يبيع له بخسارة فادحة ، والتاجر الصغير مدين للتاجر الكبير ، وكذلك تاجر التجزئة مدين لتاجر الجملة ، أما المواطن العادى فهو مدين لهم جميعا •

ويؤثر كل ذلك على التجارة بصفة عامة ، ويضع الحمل على الفقراء ، أما الطبقة العاملة فيجب عليهم أن يدفعوا لتسديد ديونهم نسبة كبيرة من أرزاقهم الضئيلة ، فتتهدم الحياة العائلية تحت هذا الثقل الضخم والمعاناة •

ويطلب الطبيب تعديلا اقتصاديا لعائلات مطرح ، لأن الأطفال هم الذين يعانون ، وهناك عدد كبير من الأطفال لا يتوفر لهم الطعام الكافى ، أو الملائم ، وأخطر مشاكل الأطفال هى الملاريا وأمراض العيون التى يسببها الذباب ، والذى يسبب الاسهال والدوسنتاريا ، وهى تلك الأمراض التى تسبب موت كثير من الأطفال •

وعيادة الأطفال فى مستشفى مطرح مكان كبير ، ويعتبر أطفال مطرح من أجمل أطفال العالم وأكثرهم تحملا ، وعلاج العيون أمر بسيط • فالطبيب يثبت رأس الرضيع بين ركبتيه ، وتعتنى الأم من الناحية الأخرى بيديه ورجليه ، ويقلب الطبيب الجفون ويضع فيها الدواء ، وبينما تجرى هذه العملية يغنى الرضيع لحنا رائعا • فعلاج العيون لا يسبب ألما ، ويمتد العلاج فترة من الوقت ، فإذا نجح الطبيب فى هذه المهمة يأتى عدد كبير من الصغار ينظرون الى هذه العملية ، وكأنها لعبة رائعة ، ويأخذون علاجهم كالكبار •

واستطاعت مسز هاريسون بجاذبيتها أن تزيد عدد الأطفال في حجرة الانتظار الضيقة ، وتعلم الفتيان الصغار أن يقبلوا الدواء كفرصة يظهرون فيها رجولتهم ، وتعتبر مسز هاريسون ، بعيونها اللطيفة هي العلامة الأساسية في عيادة الأطفال •

أما الحياة العائلية بين العرب فيقول عنها الطبيب : ان الزوجات يعنين بأزواجهن المرضى بحب شديد وإخلاص ، ومستشفى مطرح يتكون جزء كبير منه من حجرات خاصة وصغيرة تعتنى فيها النساء بأزواجهن المرضى •

وعلى الطبيب أن يجعل من نفسه فردا في العائلة اذا رغبت العائلة في ذلك • وعندما نفشل ويهزمنا الموت في النهاية فليس من عمل الطبيب أن يفر بعد ذلك ، وليس سهلا علينا أن نجلس ونشاهد الموت يسخر بجهودنا الشاقة ، وهذا بالتأكيد شيء قاس ، بل هو أقسى الأشياء في هذا العالم ، أن نجلس لنرى عجزنا ونتائج أخطائنا حين نجد أن العملية التي نصحبنا بها وأجريناها كانت سببا للموت •

ولكن ينبغي علينا ألا ندعى المعرفة غير المحدودة حتى مع الذين يعجبون بنا ، ويجب على الطبيب أن يكون أخا لكل مرضاه وعائلاتهم • وطبيب العائلة يهتم بأرواح الناس ، وكذلك بأجسادهم لذلك يرتبط معظم عمله بالنواحي النفسية • فمرض سرطان المعدة كمثال مرض خطير للغاية ، ولكنك اذا تخيلت نفسك مريضا به فذلك أخطر وأسوأ ، خاصة وأن العربي يتمتع بخيال قوى وحى •

والسمك هو قوام الحياة في عمان مثل الخبز في سامرا ، والأرز في البحرين ، وينتشر عسر الهضم في مطرح كما في أى مكان آخر •

والشخصية المتقلبة المزاج منتشرة في الجزيرة العربية ، ومنذ عدة سنوات كان على منضدة العمليات مريض في رقبته ورم خبيث ضخم ، وبعد تخديره قفز من على المنضدة وهو يصرخ مصمما على ألا نجرى له العملية رغم أنه كان قد أتى من مسافة بعيدة •

وفي مسقط والمدن المجاورة تقام جلسات كثيرة للذكر ، وتكون نتيجتها انفصام الشخصية ، ويذكر اسم الله لساعات طويلة للوصول الى حالة من النشوة ، وعند هذه النقطة بعد ساعات من العمل الشاق • يذكرون أشياء عجيبة عن هؤلاء الذين يطعنون أنفسهم بالخناجر والسيوف دون حتى أن يجرحوا •

وذات صباح جاءني ستة رجال يحملون صديقا لهم كان مشتركا في جلسة من جلسات استحضار الأرواح ، وفشل مفعول السحر معه ، فدخل الخنجر الذي طعن نفسه به بالفعل في جسده ، وكانت حالته خطيرة ، وبعد محاولات عديدة تماثل المريض للشفاء •

ولكن — ويا للخرابة — لم يسعد المريض بهذه النتيجة ، وشعر رفاقه أنه قد أساء اليهم ، وتمنوا موته ، أما هو فقد كان لا يهتم بالشفاء كي لا يواجه استنكار الحياة ، وتطلع الى الحياة في اليوم السابع ، لكن سداة في وعاء دموى تسببت في وفاته •

وحالة أخرى حزن فيها شاب على موت أخته ، وفقد الوعي ، وكانت حالته خطيرة للغاية ، وعندما ذهبت اليه في الثامنة مساء لم يسمح أهله بأن أعطيه أى دواء ، مع أنهم لو سمحوا لنا بإعطائه جلوكوزا في الوريد ومعه الايفيد رين مضافا اليهما الادرينالين لاستطعنا على الأقل أن نوقف الهبوط الشديد لضغط الدم ، ولكن احقاقا للحق فربما لم تستطع أدوية العالم كله انقاذه ، فتأثير العقل على الجسد شيء عميق جدا •

وتنتشر حالات البواسير في مطرح ، وقد عالجنا حالات كثيرة منها ، ويكرس طبيب العائلة في مطرح معظم وقته للعرب والبلوش • وتوجد في مطرح أوبئة تسبب الزكام ، وأحيانا ما تتطور حالات البرد الى التهاب حاد في الرئة ، وأحيانا تكون هذه الالتهابات مفاجئة ومميتة •

ويقدم طبيب العائلة يد العون في كل شيء عام عندما تتاح الفرصة ، فهو يرسل في طلب بيان جامعة بيروت ، من أجل فتى يريد التعليم الحديث ، وقد رتب أيضا لارسال النشيد الوطني لمسقط الى وزارة الخارجية في واشنطن للاعداد لزيارة السلطان ، وساعد في تأسيس أول ناد للتنس في المدينة ، فقد كان يعرف أن الرياضة تقيد الشباب أكثر من الدواء •

الفصل الثامن

صحة المجتمع

أول شيء تعلمته في مسقط هو أن صحة الشعب ضعيفة ، والشيء الثاني الأسوأ ، هو أن السبب الأساسي لذلك هو الحالة الاقتصادية ، وقد علق مبعوث مدينة نيويورك على ذلك قائلاً « إن الصحة هي سلعة يمكن شراؤها ، ولكن لأن العمانيين لا يملكون الماء فهم لا يستطيعون شراء ذلك الشيء الثمين * وكمية المطر التي تبلغ ثلاث بوصات في العام فهي دليل يبعث على اليأس *

ومنذ خمسة وعشرين عاماً كنا قد اعتدنا أن يأتينا المرضى من الشارقة بمناظر مخيفة ، حيث أنه ولادة عشر سنوات انقطعت الأمطار تماماً عن بلادهم ، فماتت الحدايق ، وانتقل الناس الى أماكن أخرى ، إذ أن العربي لا يرحل بعيداً عن وطنه الى زنجبار ، أو البحرين ، أو مسقط مثلاً إلا بعد فترة طويلة من الحرمان * .

وهناك في زنجبار أو البحرين أو مسقط يتفاخر العربي بمكانته السامية السابقة ، وقد ماتت النساء في الشارقة ، وكذلك الرجال في المستشفى بسبب أمراض تافهة ، فقد جاءنا رجل عجوز ، واستطعنا أن نعالج له فتقاً كان يعاني منه ، ولكنه خدش في حادث بسيط وتوفي ، وكان السبب في وفاته طعام غير صالح سبب حالة اسهال بسيطة كانت السبب في وفاته خلال شهر * .

وعملنا على اطعام هؤلاء الرجال ، وحاولنا وبكل وسيلة ممكنة نعرفها

أن نعيد بناء مقاومتهم من جديد ، ولكن عندما تنتهار المقاومة بسبب الجوع الذى استمر سنوات وسنوات لا تصلح أى طريقة •

ففى مطرح تؤدى الجروح التافهة الى اصابات تافهة ، وتكبر هذه الاصابات لتصبح حالات القرحة البغيضة ، وينتشر بين الأطفال حالات عسر الهضم ، والاسهال ، والدوسنتاريا ، ويموت عدد من الأطفال بسببها •

وقد كانت عمان مركزا بغيضا للملاريا • وقد أصبت بمرض جلدى بغيض بسبب البعوض ، وشفيت منه بعد سنوات ، والملاريا عائق خطير لبلد مثل مطرح ، والمستشفى هو الشئ الوحيد الذى يحتاج اليه المجتمع ، فقد ساعد دواء الكينين على شفاء حالات الملاريا المنتشرة •• والبعوض يزداد بسبب البرك •• ومصدر الأذى كله يكمن فى جرة الماء التى توجد فى البيوت •

أما المشكلة الثانية للصحة العامة فهى أمراض المعدة ، والمسئول الأول عن ذلك هو هذا العدد الكبير من الذباب الذى تعج به المدينة ، وقد قمنا بإجراءات هامة لوقاية الصحة العامة من هذا الخطر •

وينتشر الجذام فى عمان ، وهناك قرية صغيرة بجوار دبی ، وهى قرية بيمارستان ، لمرضى الجذام ويوجد فيها عدد كبير من هؤلاء المرضى • وقد كان الجذرى سوطا مدمرا فى عمان ، وعندما تظهر حالة فى دبی يرسل المريض فى الخال خارج المدينة ، حيث يعيش فى كوخ متجدد الهواء ، وبعد أن يشفى يسمح له بدخول المجتمع ، ويموت آلاف الأطفال غير المحصنين بسرعة من هذا المرض •

وتنتشر كذلك أمراض العيون حيث يبلغ عدد العميان في عمان الآلاف ، وهم يجلسون في طرق مطرح • والسبب في ذلك هو التراكوما ، ويسبب اهمالها العمى الكامل ، والسبب الثانى هو الماء الأزرق أو الجلوكوما • لكنها تصيب عيون الرجال الكبار سنا بدرجة كبيرة •

ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئا للماء الأزرق ، ولكننا نستطيع السيطرة على الجدرى عن طريق التطعيم • أما المشكلة الحقيقية فهي التراكوما ، وهى أكبر مشكلة صحية في عمان ، ويعانى آلاف الأطفال من التراكوما ، ويحتاج علاجها الى وقت طويل ، ولا يصل صبر المرضى الا لأسابيع وربما لأيام •

وقد كرس المستشفى الكثير من وقته لمشكلة التراكوما فمن الضرورى ايجاد علاج ما لهذا المرض ، واذا حققت الأدوية الجديدة غرضها لسيطرنا على التراكوما وبذلك نقدم مساعدة كبيرة لمطرح •

وتشتهر المستشفيات في الجزيرة العربية بعلاج العيون ، وكذلك نجحنا في علاج القرحة ، واستخدمنا ما كتبه البافيكس وحققنا نجاحا هائلا ، ولكن أعظم الخدمات التى قدمناها للمجتمع هى جهودنا ضد الملاريا ومحاولات التقليل من أمراض المعدة •

ويصاب حمالو المدينة بحالات القرحة التى نبذل وقتا كبيرا لعلاجها ، أما البيع والشراء فى السوق فيستطيع أى مواطن لديه شئ يبيعه أن يجلس ويعرض سلعته للمارة ، والأسواق هناك أسواق حرة ، حيث يبيع الرجال حين ترتفع الأسعار ، ويشتررون حين تنخفض ، ويسمح بعرض أى نوع من البضائع ، وتحمل الجمال البلح ومنتجات أخرى الى أماكن بعيدة ، والسوق يمثل نظام التوزيع فى عمان •

ويعيش الحمالون مع الحمير والجمال ، وبينهما مشاركة حميمة ،
مثلما يعيش المزارعون فى الباطنة مع أبقارهم ، والرعاة البدو مع الماعز
وهى مشاركة مليئة بالعطف والفهم ، ورأينا كيف ينادى الحمالون على
الجمال ، فيأتون بأسمائهم حيث ان لكل جمل اسم •

والحمالون هم الذين يديرون حركة السوق ، ويحمل الرجال الشحنات
من صندل الباخرة الى الشاطئ ، ومن السوق الى بيوت المجتمع ، وهذا
العمل شاق ، فيجب أن تحمل السلعة من منطقة انتاجها الى السوق ،
ومن السوق الى المستهلكين ، وهذا عمل الحمالين •

وهناك عدد كبير من الحمالين : وكلهم فقراء ، وقد قمنا بأعمال
كثيرة من أجل هؤلاء الحمالين الذين تصاب أرجلهم بحالات القرحة ،
وأطفالهم بفقر الدم ، وتصاب عيونهم بالتراكوما •

وقد اكتسبنا شهرة فى علاج هذه الحالات ، لكنها ان دلت على
شئ فهى تدل على قلة الأجور للرجال الذين يحملون أثقال المجتمع ،
وكل ما يفعله المستشفى هو ببساطة تسكين الألم ، وتثير معظم الأمراض
اهتمامنا ، فقد رأينا حالات كثيرة ، وأثارت اهتمامنا أيضا ، مثل التهاب
الزائدة الدودية ، وقد ارتفعت حالة التوتر العصبى فى الجزيرة العربية
نتيجة فى الاتصال بالحضارة الحديثة •

وقد كنا نقضى معظم وقتنا فى معالجة الجروح وكسر العظام حيث
تعود العربى أن يحمل سكيناً معه ، وبسبب هذا يأتى الضحايا الى
المستشفى ، وفى مطرح توجد محاكم معينة لتقييم الخسائر ، حيث يقيس
القاضى بعناية طول الجرح وعمقه ، فاذا كان طويلا وعميقا فان المبلغ
الذى يدفعه الفرد يكون كبيرا •

وقد ساعدنا المخدر الشوكى على تكوين جزء كبير من شهرتنا ، وقد رأينا حالات عديدة من الحالات الميئوس منها فى مطرح ، وتنتشر حالات شلل الأطفال وحالات السرطان ، وينتشر سرطان المعدة فى عمان ، وقد قمنا باجراء عمليات عديدة لتسكين الألم فى مثل هذه الحالات •

والجراحة تحتاج بلا شك الى أجهزة ، ولكننا كنا نقول بتصميم هذه الأجهزة ، وأحيانا تحل المهارة محل المال • وكانت مستشفى مطرح مكانا عظيما للمريض والطبيب ، ففيها يقضى المرضى وقتا ممتعا ويتم شفاؤهم من أمراضهم ، أما الطبيب فيقضى وقتا ممتعا حيث يتعلم باستمرار ، فهل هناك نجاح أكبر من ذلك •

الفصل التاسع

زارعو البـاح

تنتشر الجبال في عمان ، فهي بلاد جبلية ، ويبلغ متوسط معدل سقوط الأمطار بوصة كل عام ، وربما بوصتين ، وحتى اذا تم الاحتفاظ بالماء على نحو كامل فان هذه الكمية ستكون كافية لزراعة مساحة صغيرة ، لكن العمانيين لا يحتفظون بهذه الكمية ، بل الطبيعة هي التي تقوم بالاحتفاظ بجزء كبير من هذه المياه ، ويتبخر جزء قليل من الماء في عمان ، وعندما تسقط الأمطار تنفذ في الحال الى قنوات المياه الجوفية ، وبذلك تكون كمية الأمطار التي يتم توفيرها من أجل الزراعة كبيرة . وعلى هذا يجب أن تصل مساحة الأرض الصافية للزراعة الى ١٪ من مساحة عمان ، بالإضافة الى مساحة أخرى من الحدائق المزروعة على الشاطئ .

وتسقط الأمطار على الجبال ، ثم تنحدر الى قنوات المياه الجوفية ، وبعد امتلاء ينابيع الجبال بالمياه ، تتدفق تجاه البحر وتختلط بمياهه .

وهناك سهل ساحلي بين التل السطحي والبحر لمسافة مائتي ميل ، ويتراوح عرض هذا السهل من اثني عشر ميلا الى ثلاثين . وتدل الأشجار التي تنمو في السهل على وجود مياه جوفية . وبينما كنا نزور صحران تعرفنا على هذا الوادي ، وكانت الأشجار هي أكثر الأشياء التي تجذب الانتباه ، ويسيطر البدو على السهل وهم مولعون بالقتال .

وهذا السهل هو مصدر أخشاب الوقود اللازمة لكل المدن المجاورة ، وتحظر الحكومة قطع الأشجار ، ويتم جمع الأغصان والأشجار الميتة .

ونرى البدو يقطعون الأخشاب ، وكذلك تقابل الحمير ، وهى تحمل الأخشاب الى مطرح ، حيث يتم بيع الأخشاب هناك •

وفي الشمال نجد ميناءين يصدر التجار منهما الأخشاب الى أماكن بعيدة ، وتذهب شحنات الخشب الى الكويت وإلى موانئ إيران •

والأهمية الحقيقية لهذا السهل لا تكمن فقط في أخشابها ، أو في المراعى التى يوفرها للجمال ، ولكن أهميته أيضا فى أن ثلثى سكان عمان يعيشون فى هذا السهل ، حيث تتوافر التربة الخصبة ، وتسقط المياه من الجبال ، وتستطيع كل عائلة فى الجزيرة العربية أن تملك حديقة فى السهل ، وإذا توافرت المياه يعيش فى السهل عدد قليل من البدو ، ولكن بجوار البحر ، وهناك تجد مزرعة البلح الكبيرة فى الجزيرة العربية ، وتسمى هذه الحديقة أو المزرعة ، الباطنة ، وهى تعنى الأرض الداخلية ، وربما تعنى الجبال التى تحيط بالأشجار •

وقد تم حفر مئات وآلاف من الآبار فى مساحة الحديقة ، وهى أهم الأشياء فى هذا العالم الصغير •• حيث يأخذ القائمون بيانات بحدود الأرض لكل شخص ويعرف كل مواطن البئر التابع له •

وبجوار البئر مباشرة توجد حديقة بها مائة شجرة نخيل ، رغم أن الآبار تساعد فى مضاعفة هذا العدد ، ومن السهل صيانة الحديقة اذا كانت القنوات قصيرة ، وإذا كانت كمية الماء المفقودة قليلة ، لأن التربة تربة رملية •• ولكن عندما تكون الحديقة كبيرة وتكون القنوات طويلة يتم حفر بئر ثان •

وتررع أشجار النخيل بجوار البئر نفسه ، وهى عادة من أشجار المانجو فى بركا ، وفى السيب ، وكذلك فى أماكن أخرى ، وتعتبر الحدائق

هى أكثر الأماكن التى يزورها الناس ، وتغسل النسوة ملابسهن فى المقننات بجوار البئر ، ويجلس الرجال للحديث فى الظل فى أوقات معينة ، وتكثر الجمال حول بئر الحديقة •

وقد أثبت الثور أنه جهاز الضخ الوحيد الناجح لاستخراج الماء من هذه الآبار ، وينمو طعام هذا الجهاز الحيوانى فى الحديقة نفسها ، وهو حشائش الرعى ، وهكذا تكون التكاليف قليلة • والثور هو شريك الرجال فى الصراع من أجل البقاء •

ويبلغ ارتفاع المياه العذبة بجوار البحر من ثمان الى عشر أقدام من السطح ، لكن كلما ارتفعت الأرض تجاه التلال السطحية ابتعدت مياه الآبار أكثر من السطح ، وعندما يصل عمق الآبار الى خمس وعشرين قدما تتوقف الزراعة ، لأنه لا يمكن سحب الماء للرى من عمق مثل هذا ، حتى اذا دفعت الأموال لاقامة الحديقة •

وعندما تأسس المستشفى بعد فترة تأخير طويلة ، كان مجهودنا الأول قد توجه نحو تنظيم العمل ، لكى يجد المريض العناية فى مطرح ، وكانت رغبتنا هى توسيع مجال خدمتنا للوصول الى المدن الأخرى ، وليس فقط فى المدينة الصغيرة التى نعيش فيها •

ومنذ عشرين عاما عندما ألغيت تجارة الأسلحة عانت الباطنة بشدة مثل باقى أجزاء عمان ، وان ظلت هى مخرطة الى حد كبير ، لكن أسطول البعوضة الذى ينقل الأسلحة استطاع أن يصل وأن يؤثر على الشاطئ • ونتيجة لذلك فمسلط ليست عاصمة عمان فى الخمسة والعشرين سنة الماضية كما يجب أن تكون ، ولكنها كانت فى الحقيقة عاصمة الباطنة وحدها •

كانت وسائل المواصلات بين العاصمة والشواطئ الساحلية نشيطة ، ودعانا حاكم صحار ، وألح علينا كى نزور مدينته ، ووعد باعطائنا أفضل المناطق مكانا ، وكل التسهيلات التى يحتاجها عملنا ، ووعد أيضا بأشياء أخرى سيفعلها ، وعدد سكان الباطنة لم يكن يقل عن خمسين ألف نسمة •

وقمنا بالرحلة فى أحد القوارب الشراعية •• وصحار تبعد عن مسقط مسافة عشرين ميلا ، وقد كانت هذه الرحلة رومانسية رائعة •

وعملنا على نقل هيئة المستشفى على قدر استطاعتنا الى صحار ، وعملنا لعدة أيام للحصول على الأدوية فى العلب ، ولتجهيز الأجهزة الجراحية فى لفائفها •• وارتبكت العيادة فى مطرح لسفر قمبر ومبارك لكننا استطعنا أن نديرها فى الأيام الأربعة لغيابهم ، كنا نهتم بعلاج عيون المزارعين قبل أى شىء آخر •

ورغم أن معظم المرضى كانوا من الرجال هذه المرة ، الا أن النساء هن اللاتى كن يسيطرن عليهم •• وعندما جاء مبارك كان حريصا ومتعطشا لعمل الخير ومساعدتهم ، بيد أن جميع الرجال رفضوا العلاج •• وقد تكررت هذه النهاية المضحكة لمثل هذه المغامرة المتفائلة ، ونجحنا فى انقاذ الكثير من عيون المزارعين فى العامين الماضيين •

لم ينجح مبارك كبائع للأدوية ، ولكنه كان كمساعد طبيب ، فهو لا يضاهيه أحد فى ذلك ، ورغم هذا فقد رفض المزارعون المساعدة التى كان مبارك يقدمها لهم ، حتى لو ذهب الى ديارهم ، ووضع العلاج فى أفواههم وعيونهم •

وهكذا فكرنا فى أن نعلم قمبر كيفية علاج جفون العيون ، واحتجنا

الى مساعد مثقف ماهر لبيع الدواء ، ورغم أن هذا يبدو بسيطا الا أن الواقع يختلف تماما ، فالعمليات الجراحية البسيطة عامة تحتاج الى نوع من المهارة والحذر ، وبخاصة عمليات انحراف الأهداب ، وكثيرا ما سببت لنا المآزق ، وحالة المريض بعد العملية تكون خطيرة ، وتستغرق هذه العملية شهورا وتحتاج الى جهد شاق ، وربما للأسف لا تتجح بعد ذلك •

واذا كان مدرب لعبة البيسبول يختار أفراد فريقه من الأفراد المتمتعين بقدرة طبيعية قوية ، ثم يدرب هو تلك القدرات الطبيعية بعد ذلك ، فقد كان علينا أن نختار الرجل الذى يتمتع بقدرات طبيعية كبائع ، ثم ندربه نحن على كل شيء •

وكان أملنا هو أن نحقق تقدما فى أماكن أخرى ، وبالفعل سافرنا الى مدن أخرى مجاورة لعمان الداخلية ، وتركنا اقليم الباطنة ، وعندما حدث تمرد فى المدينة الداخلية منذ خمسة وعشرين عاما طردت البعثة التنصيرية ، وكل ذوى البشرة البيضاء من هناك •• لكن أملنا كان أن يتمكن قمبر ، كمون للكينين ، من فتح باب أو اثنين ، ثم نخطط نحن لانشاء مستوصف فى احدى الأماكن القريبة •

وبالفعل قام قمبر بدوره فى هذه المهمة ، وبدأنا اقامة المستوصف فى نخل ، وهى مكان هام فى واحة من الواحات الكبرى فى المدينة الداخلية ، وسارت الأمور كما ينبغى لمدة شهر أو أكثر ، وقدر الناس مجهودنا بالفعل ، وقد عرفنا أن الثور لا يشارك فى العمل بالمدينة الجبلية •

ولكن زعماء الدين لم يسعدهم ما نقوم به ، وبالتالى طلبوا منا بعد شهرين أن نقطع زيارتنا ، لكن هذه المعارضة لم تستمر لمدة طويلة ، فبمجرد أن وصل الخبر للصحافة استلمنا دعوة حارة لى نعود ، ونعيد انشاء المستوصف •

وفي عمان كما هو الحال في بقية الجزيرة العربية يعتمد كل شيء على رغبة الناس ، وكنا أحيانا نقضى وقتا طويلا لاقتناع رجال الدين والشيوخ ، لكن الحقيقة هي أننا كنا كلما ألحنا عليهم للحصول على طلب ما وافقوا عليه في النهاية •

وكانت مسز هاريسون من المجموعة التي عملت في نخل ، لذلك فقد فرحت النساء بمجيئنا ، وكنت واثقا أنهم سيقومون بالغاء أمر منع دخولنا ، حيث انه طالما رضيت النساء عنا ، فسوف نحصل على الموافقة ، فالنساء في هذا الجزء من العالم يحصلن على ما يرغبنه •

وفي نهاية تجربة وخبرة لعدة سنوات شعرنا بأننا قدمنا شيئا ما لمزارعي التمر في الباطنة ، وذلك عن طريق توزيع دواء الكينين لعدد كبير منهم ، وتم تسجيل هذه الأعداد في البيانات الاحصائية •

وذات مرة قمنا برحلة الى صحار ، ولكن لسوء الحظ كانت هذه الرحلة سيئة للغاية ، وبقيت ذكرياتها الأليمة في روحي ، فقد أرهقنا ارهاقا ما بعده ارهاق في تلك الرحلة •

ورغم ذلك قضينا وقتا ممتعا حين وصلنا الى صحار ، فهناك كانت تنتظرنا حالات فتق كثيرة ، وحالات عيون ، ووجدنا ثلاثة أنواع من طفيليات الملاريا المختلفة هناك مثلما وجدنا في مسقط ، وفي صباح يوم أحضر واحد من البدو أخاه الذي يعاني من جرح قديم مهمل نتيجة طلقة نارية في رجله ، وبدت هذه الحالة كمخاطرة سيئة ، وناقشت الحالة مع شقيق المريض ، وهو من رجال قبيلة عجمان • وبعد بتر رجل الصبي الصغير استعاد صحته •• وعرفنا أن بدو هذه المنطقة ليسوا أشرا كما ذاع عنهم •

ولحم سمك القرش لا يؤكل في الجزيرة العربية كلها سوى في الباطنة ، ويقوم صيادو الباطنة باصطياد سمك القرش دون تردد ، وبشجاعة منقطعة النظير .. وقد رأيت ذلك بنفسى بمنطقة بركا .. حيث رأيت سمكة قرش عملاقة يجرها الصياد لمسافة نصف ميل حتى سوق السمك .. ولم أعلم وقتها كيف نجا هذا الصياد من هذه السمكة ، وقلت له بصوت عال « هل ستأكلون سمكة القرش ؟ » فأجاب « بالتأكيد سنأكلها ، ونظر الى الضحية العملاقة ، وأكمل جملته بعبارة فلسفية » « انها تأكلنا ، ونحن نأكلها ، ولكن المهم من يأكل الآخر أولا » ♦

وفي ذات يوم أرسل أحد الشيوخ يطلبنى ، عندما شعر أنه فى حاجة الى عملية ♦ وأظهر الفحص سرطانا ظهاريا فى جانب من وجهه ، وكان فى حجم الدولار ، وقد عاش به لمدة عشر سنوات ، أو خمس عشر سنة ♦

ورغم سهولة استئصال مثل هذا بسهولة فقد كانت المسألة من وجهة نظر الشيخ غاية فى الخطورة وقال لى : « لا .. لا أستطيع أن أذهب الى المستشفى فى مطرح » وعجبت للأمر ، فالمستشفى لا يبعد عن المكان الذى كنا فيه الا مسافة ثلاثين ميلا ، ولكنى عرفت بعد ذلك أنه يخشى الذهاب هناك بسبب ثأر قديم لأقارب احدى زوجاته ♦

واتضح أنه من المستحيل أن يذهب الى مطرح ، ويرقد فى مستشفى غريب وسط أعدائه ، ولذلك أحضرنا من مطرح حوضا كبيرا وسلة مليئة بالأدوات الجافة المعقمة ، وكمية من المخدر ، وجهزنا حجرة عمليات تشبه الحجرة التى استخدمت فى العصر الحجري القديم ♦

وكانت هناك شجرة ، أقمنا تحتها تجهيزات الحجرة ، ووضعنا حصيرا

على الأرض كمنفذة للعمليات وفرشنا منشفة ، وبجوارها الأدوات ، وغسل الطبيب يديه ولدة طويلة في عدد من الأطباق • وتمت العملية بنجاح كبير ، وصفق الحاضرون •

ولا شك أن معالجة المريض في الهواء الطلق مغامرة بارعة ذات قيمة كبيرة ، ولا يحدث أى ضرر اذا شاهد العملية عدد كبير من الأصدقاء ، فهم يتعلمون أشياء كثيرة مفيدة لهم ، وقد أذهلهم — مثلا — تصميم الطبيب على غسل يديه قبل العملية ، فقد استهلك الطبيب كمية من الصابون ، وغسل يديه في عدة أطباق •• ولكن المهم أن الجمهور لا يواجه الأسئلة الى الطبيب مباشرة ، بل ينتظرون حتى يبدأ المساعد في غسل يديه ، فيسألون « لماذا تغسل يديك بكل هذه الكمية من الصابون » فأجابهم المساعد « تلك هى الطريقة ، فأنا أغسلهما بعناية حتى يصبحا في النهاية في بياض يدي الطبيب » ، وقد كان المساعد هذا أسود اللون ، ولكنه كان يحب الفكاهة •

وقد تعلمنا الكثير في هذه الرحلات ، وشاهدنا الصراع الشاق الذى لا يمكن تصديقه من أجل زراعة حدائق الباطنة •• حيث يتم تنظيم هذه الحدائق في مزارع كبيرة ، ولم تعد قنوات المياه المصنوعة من الأسمنت تستخدم ، وهناك فرق كبير بين الباطنة والحدائق الموجودة في واحات الجبال ، ففي الجبال تسيل المياه على السطح عن طريق الينابيع المتدفقة ، وكل ما يفعله المزارعون هو توجيه المياه الى سقى الأشجار ، أما في الباطنة فالياه تستخرج عن طريق الآبار التى يبلغ عمقها حوالى ثلاثين قدما ، ويتطلب ذلك جهدا كبيرا ، وهذا هو ما يحدث منذ خمسة وعشرين عاما كما هو الحال الآن •

ولكن هذه القصة قد اختلفت الآن ، فالماء يجب أن يستخرج الى السطح ، ولكن الكمية المطلوبة منه غزيرة لأن الأرض رملية ، ولا يستطيع

المزارعون بناء القنوات المصنوعة من الأسمنت بسبب عدم توافر الأموال اللازمة ، وأيضا بسبب فتور حماستهم ، فهم لم يحاولوا اصلاح القنوات القديمة .

ويعمل الرجل والثور معا • وهما شركاء فى الكفاح الطاحن من أجل البقاء حسب الامكانات المتوفرة ، وبين الرجل والثور تعايش حقيقى ، وتعاطف عميق وتفاهم ، وهذا التعايش نفسه نجده بين الراعى البدوى المتجول وبين الماعز ، لكنها مشاركة مليئة بالحرية وبالراعى الواسعة ، وأما مشاركة الثور فهي مشاركة بغیضة لما فيها من تعب وكفاح ، والثور حيوان غط يعادى الغرباء الذين يراهم فجأة فى أرضه ، ويأكل الرجل والثور من الحديقة ، ويستخرجان الماء معا من البئر ، وهذه هى الحياة المشتركة بينهما •

والرجل يشارك بالمقدرة العقلية وبجزء لا بأس به من القوة البدنية فى الجذب ، أما الثور فيشارك بالقوة وبكثير من المهارة •

وأنقل لكم صورة حية لكيفية سحب الماء •• فهناك حبل يدور فى بكرة عالية يتصل بدلو كبير من الجلد فى حجم حوض الغسيل ، يحتوى عند امتلائه على خمسة وعشرين جالونا أى مائتى رطل •

وينزل الرجل والثور فى المنحدر ويجذبان هذا الدلو الى السطح ، وهذه الحفرة التى ينزلان اليها شديدة الانحدار ، ويجذبان هذا الدلو الى أعلى بجهد معقول ، ثم يتسلقان بعد ذلك للعودة الى قمة التل الصغير للاستعداد للنزول مرة ثانية ، وهذا المجهود هو أشق جزء فى عملهما •

وشكل الدلو يدل على البراءة والمهارة ، ففى أسفله قمع رفيع ، يبلغ طوله خمسة أقدام ، يتم ربطه عند نزول الدلو الى البئر ، ثم يفك عند

وصوله الى السطح كى ينزل الماء فى الحال الى الصهاريج .. ويستطيع الرجل والثور العمل بهذه الطريقة لمدة أربع ساعات فقط ، حيث يجذبان الدلو وينزلان به كل خمس وأربعين ثانية فى أفضل الظروف ، وفى الصيف يقوم الشريكان بهذا العمل بعد غروب الشمس .. وقد كنا نسمع الصرير الحاد للبكرات أثناء الليل •

ويستطيع ثور واحد ورجلان الاعتناء بمائتين من أشجار النخيل ، فبينما يعمل أحدهما مع الثور يوجه الآخر المياه الى سقى الأشجار .. وتقف كل شجرة فى مركز الدائرة التى يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام ، وحولها حائط صغير من الطين للاحتفاظ بالماء ، ويتم عزل القت « الفصفص » والمحصولات المتشابهة بجدر مربعة •

والنخل يحتاج للرى مرتين أسبوعيا فى التربة الرملية فى الباطنة ، لكن فى فصل الجفاف عندما لا تزرع الفاكهة يروى مرة واحدة فقط أسبوعيا ، وأحيانا أقل من هذا ، ويتم حرث الأرض بمحراث خشبى مرة أو مرتين فى العام ، ويجب أن تحصل التربة على كمية محددة من الماء ، ويجب أن تقطع سعف السنة الماضية كل ربيع ، ويباع سعف النخل كوقود ، أو كألواح لبناء المنازل •

وهناك محاصيل ثانوية أهمها القت ، لكن البلح هو قوام الحياة هناك ، وأكثر من يعانى هم زارعو البلح فى الباطنة الذين يعملون باستمرار ، حتى اننى ذات يوم قلت لأحد المزارعين ، وكان يعانى من قرحة خطيرة « لابد أن تأتى الى المستشفى للعلاج » وكان يعيش على مسافة ميلين فقط من المستشفى ، ولكنه أجاب « هل يمكن ارسال الدواء لى هنا .. فأنا مضطر للعمل فى الأرض » •

وحتى اذا افترضنا أن أجور مزارعى البلح فى الباطنة كافية وأحوال

المعيشة جيدة فالعمل في حد ذاته سيء جدا ، لكن هناك حقائق أخرى
يجب الحديث عنها •

فمهنة زراعة البلح في الباطنة مهنة غير منظمة وغير مشجعة ، فمالك
الحقائق غير الموجود يطلب من المستأجر الكثير ، بينما يحاول المستأجر ،
ولكن البلح لا يدر ربحا وفيرا ، وقد تدهورت رعاية أشجار النخيل حتى
ان معدل المحصول العادي لا يزيد عن ثلاثين رطلا ، ويدل هذا الرقم على
ندرة الماء ، وعلى العناية القليلة ، وعلى هجرة الملاك لحدائقهم الكثيرة ،
وتوحى صنوف جذوع الشجر الميتة بالخراب والاقفار والموت •

وفي جميع أنحاء الباطنة يحصل المزارع على أربعة ريالات شهريا ،
أى ثلاثين بيضة يوميا « ما يعادل أربع أو خمس سنتات » ، ولا يسمح
للمزارع بزراعة محاصيل صغيرة لنفسه ، فالمالك يحتاج الى الماء
لبلحه ، والمزارع يستخرج الماء الى السطح ، وان كنا لا نستطيع أن
نحدد معيارا ثابتا أو طريقة معينة نستطيع الحكم بها على مدى كفاية هذا
الدخل ، والحد الأدنى الثابت الذى تعيش عليه عائلة بأكملها في مطرح
يبلغ حوالى خمسين بيضة •• لذلك اذا لم يأكل المزارع من انتاج الحديقة
فسيموت جوعا •

وكنيت أعرف صديقا طيبا ، وهو مالك لحديقة صغيرة في منطقة بركا ،
وغالبا ما كنا نزوره لنتناول الطعام معه ، وكنا نحرص على دفع ثمن هذا
الطعام ، حيث انه في ذلك الوقت لم يكن المزارعون يستطيعون دفع ثمن
الطعام الباهظ ، وقال لى هذا الصديق : ان تلك الحديقة في أيام مجدها
كان بها أكثر من مائة شجرة نخيل ، ولكن ثمن التمر انخفض بشدة ،
وأصبح هذا المالك الآن ممرضا متجولا في الطريق ، يعالج المصابين بأمراض
مختلفة ، لكنه تخصص في علاج انحراف الأهداب ، وقد أكد لى أن زراعة

البلح أو أشجار النخيل لم تعد تستحق العناية المبذول في سبيلها ، حيث ان عائداها قليلة ، لا تكفى عائلة واحدة لتعيش عليها •

وهذا قول صادق ، فأثمان البلح انخفضت بدرجة كبيرة للغاية •

ولكن لحسن الحظ يعيش مزارعو الباطنة بجوار الشاطئ ، ويصطاد معظمهم الأسماك ، لأن البحر ملئ بها ، ويمكن توقع تطوير مجتمع صغير يعتمد على السمك ، وقد حدث هذا بالفعل ، فإذا كان ٩٠٪ من سكان عمان يزرعون البلح و ٦٠٪ يرعون الماعز ، فان نسبة تبلغ ١٪ تمارس صيد السمك •

وصيد السمك فن وعلم في حد ذاته ، فهناك أنواع مختلفة من الأسماك ، لذا نجدهم يستخدمون الشباك في صيد بعض الأنواع ، والبعض الآخر يستخدمون السنارة والهلل على الأسماك الموجودة في قاع البحر وفي السطح •• وهناك أنواع كثيرة للشباك ، وقد رأيت شبكة يبلغ طولها ميلا •

وتتكون مجموعات الصيد من عدد يتراوح بين ثلاثة الى اثني عشر رجلا في مركب ، يؤجرونها لهذا الغرض ، ويدفعون ٢٠٪ من كمية الصيد كإيجار للمركب ، والصيد مهنة شاقة ، ووسيلة للرزق الضئيل ، ورغم ذلك يفضل بعضهم الصيد على زراعة البلح في الباطنة ، أو على حياة البدو في المراعي •

والصيد مغامرة تتطلب مزيد المغامرة ، ورغم أن السمك يسد حاجة السكان فمخاطر الصيد كثيرة • وذات يوم ذهبت للسؤال عن أثمان وكمية الصيد في ذلك اليوم ، ولكني رأيت القلق على وجوه الصيادين الذين كانوا ينتظرون قارباً به خمسة من الصيادين لم تصل أية أخبار

عنهم لعدة أيام ، وربما حدث لهم مكروه دون أن يتركوا أى أثر وراءهم ،
وقد فسرت العاصفة — التى استمرت لمدة يومين — غياب الصيادين
الخمسة •

وهناك ثلاثة أسواق للصيد ، السوق الأول هو المجتمع المحلى الذى
يعيش على السمك ، ففى بركا والسيب ، وفى كل المدن التى نزورها أثناء
ممارستنا للعمل الطبى فى الطريق يكون الحديث اليومى هو سوق السمك
المقام فى الأصيل ، وتعرض هناك كمية مختلفة للبيع ، وفى الليل يعود كل
رجل الى بيته ومعه قطعة صغيرة من سمكة كبيرة ، أو جزء كبير من سمكة
متوسطة لكى يتناول عشاءه •

ويمتد السوق الثانى الى أماكن أبعد من المجتمع المحلى ، وكنا عندما
نعود من رحلاتنا المجاورة ، نتوقع دائما عند الغروب أن نقابل الحمير
الكثيرة والجمال وهى محملة بالأسماك ومتجهة الى المناطق الداخلية ، وعند
الغروب يشعلون النيران ، ويشوون السمك ، ويظل السمك طازجا لمدة
طويلة ، وتستخدم الحمير فى نقل السمك الى المناطق النائية ، وهى تسافر
طوال الليل ، وتستطيع الحمير أن تصل الى الأماكن الداخلية التى تبعد
خمسين ميلا ، وقدرة السوق على امتصاص كمية السمك تتزايد بصورة
كبيرة •

وبالإضافة الى بيع السمك الطازج فإنه يتم تجفيف وتمليح كميات
كبيرة وتصدر الى أماكن كثيرة وبخاصة الى سيلان (سيرالانكا الآن)
ولا يعرف أحد لماذا يجب شعب سيلان سمك مطروح ، لكننا نسعد
بهذا جدا •

وفى السنوات الأخيرة قام تاجر نشيط بتصدير كميات كبيرة من
الأسماك الصغيرة المجففة الى ألمانيا كغذاء للدجاج هناك ، وان كان التبادل

التجارى مع ألمانيا صعبا للغاية ، ذلك لأن الألمان لا يدفعون ثمننا نقديا لهذه الأسماك ، ولكنهم يقدمون بدلها بضائع يصعب نقلها الى عمان •

ولازالت أطنان كثيرة من هذه الأسماك المجففة الصغيرة يتم ارسالها ، وقد أنعش الدخل الاضافى الذى تجلبه هذه التجارة حياة المزارع الشاقة ، ويشكل الصيادون مجتمعا صغيرا ، ويعتبر الدخل الاضافى الناتج من تصدير الأسماك المجففة مساعدة ضئيلة •

ويعتمد مجمع الباطنة على زراعة البلح ، وثمر البلح هو الذى يحدد مستوى المعيشة ، ولعدة سنوات كان ثمن البلح زهيدا لدرجة أن أصحاب الحدائق يربحون القليل أو لا يربحون أى شئ ، مما يدفع عددا كبيرا منهم الى الرحيل الى بلاد بعيدة ، فالحالة الاقتصادية فى الباطنة شديدة السوء •

وفى الوقت ذاته يموت الرجال الذين يقومون بالعمل جوعا ، فالعائلة كلها تربح أربع أو خمس سنتات ، ولا تتمكن أية عائلة من زراعة محصول خاص لها ، وما يحصل عليه المزارع يقدر بمقدار ما تنتجه شجرة النخيل سنويا ، وهو يبلغ ثلاثين رطلا ، لذلك يحصل المزارع على أربع سنتات فى اليوم ، وان كانت أشجار نخيل الواحات الجبلية تنتج كمية أكبر نسبيا من أشجار نخيل الباطنة ، وليس هناك سبب يفسر ذلك ، ومعدل ما تنتجه أشجار النخيل فى الواحات الجبلية فى حديقة كبيرة هو مائة وسبعة عشر رطلا لكل شجرة ، والسبب الأساسى هو أن المزارعين يحصلون على أجر مناسب مقابل رعايتهم لأشجار النخيل ، ويسمح لهم بزراعة محاصيل خاصة لأنفسهم •

ولابد من اعادة النظر في مركز المزارع في الباطنة ، والى رفع روعة المعنوية • وهذا ما يجب القيام به في مسقط ، وبالتأكيد اذا حصل المزارعون على حياة مريحة فسيضاعفون الانتاج الحالى للبلح ، لكن ثبتت صعوبة تحقيق هذا حيث ان هذا المجتمع المعقد للغاية ، ومرن ، مثل البالون عندما تدفعه من ناحية ينتفخ من الناحية الأخرى •

وعلى أية حال تستطيع الحكومة أن تصدر أمرا يقدم جليل المساعدة لهؤلاء المزارعين ، ويستطيع السلطان أن يسن قانونا يعطى لكل مزارع حقه في زراعة محاصيل صغيرة لنفسه ، وأن يعاقب كل من يتدخل لالغاء هذا الحق ، واذا ما أصدر الحكام مثل هذا القانون ، وأصرروا على تنفيذه فسيغير الوضع في الباطنة الى حياة جديدة في أسرع مما يتصور •

وأشد ما يعرقل قدرة الباطنة على الانتاج هو كثرة النخل الرديء ، لذلك يجب أن تحل النبتة الجديدة محل النخل القديم الرديء كل عام ، واذا بذل المزارع جهدا منتظما لتأكيد أن الأشجار الجديدة أفضل • وتنتج كميات أكبر ، وهناك احتياج لاكتشاف أفضل الوسائل وأقلها تكلفة لاستخراج الماء من الآبار ، وانه بالامكان مضاعفة الرقعة الزراعية اذا ما تم تطوير الماكينة التى تدار بالبترول أو أية ماكينة أخرى تجعل الري من الآبار مفيدا ، وبخاصة تلك الآبار التى يبلغ عمقها خمسة وسبعين قدما •

لكن تحسين وضع المزارع هو أهم الموضوعات جميعا ، فقد حدث استخدام بعض الماكينات المناسبة ، وتجربى التجارب المبشرة بالخير على تلك الماكينات ويستخدم أحدهم العجلة الايرانية ، ويستخدم آخر المضخة ، وهكذا ، ولكن المزارع هو الذى يحتاج الى تحسين ، وليست أدواته فقط وسوف تبتهج المدينة وتتفتح كالزهرة ، اذا نحن أطعمنا الزارع وأدخلنا

أطفاله المدارس ، وإذا نحن أعطينا لأولاده وعائلته ثيابا حمراء يرتدونها في العيد للاحتفال به •

ولا يستطيع الفرد بعد أن يرى الباطنة الا أن يفكر دائما في أعبائها حتى وهو يعمل في مطرح ، وكنت أحيانا أفكر في وسائل تخفيف هذه الأعباء ، وفي الوقت ذاته قررنا أن رحلة واحدة في السنة الى الباطنة كما نفعل غير كافية ، وبخاصة وأن مهمتنا كانت مساعدة المزارعين قدر ما نستطيع •

وقررت البعثة أن ترى نتائج العيادات الأسبوعية التي تقيمها على مسافة خمسين ميلا من مطرح ، وكرسنا يوما في الأسبوع لهذا الغرض ، وقد كان أملنا هو أن نصل الى مناطق عديدة ، ربما ثلاث مناطق في اليوم الواحد ، مما يسمح لنا بالوصول الى مزارعي البلح ، لكي نحسنهم ضد الملاريا ، وهذه تعتبر مساعدة من المساعدات الهامة لحالة المزارعين ، وقد أرسل لنا أصدقائنا في أمريكا سيارة فورد ، وأثارت تلك السيارة التي تساعد على تقديم الخدمات في الجزيرة العربية الكثير من التعليقات •

وكنا قد تعلمنا الكثير من السفر البحري منذ أن بدأنا في تنفيذ سياستنا ، وهي القيام بجولة واحدة في السنة الى المناطق النائية ، ولكن على أية حال فمئذ أن استخدمنا السيارة الفورد كمستوصف للخدمات الأسبوعية ، فقد تعلمنا كثير جدا عن السفر البري •

والطريق في عمان طويل وضيق ، وقد كنا نقود السيارة فوقه ، أو ندفعها أو نجر بها في البحر ، ولكن السيارة لم تكن لتستطيع تسلق الجبال ، وهكذا كان علينا أن نطوف بحذر حول الصخور في الوديان ، فان صخرة في حجم « البيانو » أو أكبر تستطيع أن توقف سيارة الفورد ،

والوصول الى هذه المدن عبر البحر أمر غير ممكن ، والشاطئ مسهل للغاية لذلك استخدمناه أكثر من مرة •

وذات مرة تعطلت السيارة ، وحلت محلها عربة بست عجلات (فورد - ٨) ، وقد فتحت الاطارات الجديدة الطريق الى قرىات ، واندفعنا بالعربة في وادي صعب تم اختراقه في أصيل ذات يوم ، وارتفعت الحكومة الى مستوى المسؤولية • ومهدت الطريق ، والآن تصل العربات الى هذه المنطقة بسهولة •

وقد حدث ذات مرة ونحن نركب السيارة الدبابية ذات العجلات الست أن تلف جهاز تشغيل التروس قبل الغروب بساعة ، ولم يكن هذا العطل سهلا ، فلم نكن نحمل جهازا احتياطيا ، وفي هذا الجزء من العالم لا يمكن الحصول على معدات السيارة • وعلى هذا لم يكن أمامنا سوى أن ننام في العراء ونرسل في طلب سيارة لانقاذنا ، وقد كنا على بعد أربعين ميلا من منزلنا ، وهي مسافة طويلة ، لا نستطيع أن نقطعها سيرا ، ومكثنا في السيارة ومعنا قليل من النقود لنأكل بها حتى يعود محمد الذي أرسلناه ليحضر جهازا جديدا ، وكان من الضروري أن نترك أحدها مع السيارة •

وسارت المجموعة الى السيب لمسافة خمسة أميال ، وأكد لنا محمد أنه يستطيع أن يجد زوجته هناك ، وحل الظلام ، وكان الجو باردا ، والمكان صامتا عندما وصلنا هناك ، ولكننا لم نجد سوى كوخ خال ، ولحسن الحظ أخبرنا الجيران بمكان شقيقة زوجة محمد ، فمكثنا نحن في الكوخ ، وامتطى محمد حماره ، وذهب ليجث عنها ، وبعد ساعتين عاد الاثنان ، ومعهما دجاجتان ، ويبدو أن الدجاجتين أدركتا أن عمرهما قصير ، فبدأت تنديبان هذه الحقيقة ، وبدأنا في طهي الطعام ، وتناولنا العشاء في منتصف الليل •

وكانت رياح الشتاء قاسية البرودة ، ولم أعرف أن البرودة في الجزيرة

العربية تصل الى هذه الدرجة ، وكانت الشقوق كبيرة في بيتنا الصغير مما جعل مضيفنا قلقا علينا ، ووجدنا رجلا كان مستعدا للذهاب الى مطرح التي تبعد ثلاثين ميلا ، فأخبرناه وواعد بأن يرسل في الصباح التالي سيارة تأخذنا ، وأنه سيذهب الى هناك على ظهر حمار ، فوافقنا ، ودفعنا له أجرته ، وقلنا اننا سندفع له أكثر حين نقابله في مطرح •• ولكنه ذهب ولم يعد • وأحضر مضيفنا غطاء من القطن لحافا ، وحاولت أنا ومسر هاريسون أن ندفع أنفسنا به ولكننا لم ننجح ، وحاول أحد أصدقائنا أن يلف نفسه بلحاف قديم ، وعندما أشرق الصباح قال ان هذا بالتأكيد مكان شاق •• وفي النهاية عدنا الى مطرح في حوالى الساعة العاشرة ، وقمنا بعملنا في العيادة في الفترة الصباحية كالعادة •

وفكرنا كثيرا في العيادات الأسبوعية وعملنا فيها بجد •

ولكن لم يحدث لنا أن نمنا في الصحراء مرة أخرى •

ومما يجدر ذكره أن مجموعة العيادات الأسبوعية هذه كانت خيبة أمل كبيرة بالنسبة لنا ، فلم يأت اليها هؤلاء الذين أنشأنا هذه العيادات من أجلهم ، وهم زارعو البلح ، وبعد عدة سنوات لهذا المجهود قررنا أن عملنا لم يكتمل بعد •• لأن هناك أسبابا أخرى :

أولا — كان المزارع لا يتمكن من توفير وقت لتناول دواء الكينين أو أى دواء آخر يحتاج اليه ، فهناك الكثير من المزارعين لا يستطيعون توفير بضعة ساعات لكي يحصلوا على شيء الا اذا كانوا يحتاجون اليه بالفعل حاجة شديدة •

ثانيا — وهذا سبب أكثر أهمية من سابقه ، وهو أن المزارعين كانوا يخشون الظهور في المدن ، مهما كانت الظروف ، خوفا من أن تقبض

السلطات عليهم ، لأنهم لا يدفعون الضرائب ، وبخاصة ، وقد كانت تلك الضرائب على أشجار النخيل شيئا جديدا يثير الامتعاض لديهم ، حتى أنه حدث شغب عنيف في عدة أماكن ، لأن الرجال صمموا على عدم دفع أية ضرائب •

وأخيرا لأن مزارع البلح كان يكدح بلا أمل • فقد قررنا أن نبدأ أسلوبا جديدا •

وفي ذلك الوقت كان قمبر قد عاد بعد غيبة طويلة ، وقد قام برحلة مع الدكتور ستورم حول الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية ، وكنا نعتبر قمبر هو الرجل المتخصص في اتصالاتنا الخارجية ، فقد كان يحب الاختلاط بالناس في المدينة ، وقد ولد لكى يكون كذلك ، فلم يكن يرهب أحدا ، وكان يحب كل انسان بمجرد أن يراه ، وعلاوة على ذلك كان قد تعلم كثيرا من التجارب في المستشفى ، فهو يستطيع أن يحقق ببراعة ابرة في الوريد ، ويعرف الكثير من استعمالات الكينين •

وكان النوبى قد انتقل الى حجرة القرحة ، ولذلك احتجنا الى قمبر هناك ، وأردنا أن نرى هل ينجح قمبر في التأثير على مزارعى البلح ، كى يأخذوا الكينين الذى يحتاجون اليه اذا حمله اليهم في ديارهم ، لكى يحادثهم ويضع الدواء فى أفواههم •

وبالفعل استطاع قمبر أن يقوم بالمهمة خير قيام فقد أسعدته المهمة وأسعدته كذلك حياة مزارعى البلح •

وفي صباح كل يوم اثنين كان قمبر يمتطى ظهر حماره حاملا الكينين وأملاح أبسوم وجهازا لخلع الأسنان ، ومعدات لغسل وعلاج القرحة •

وكان قمبر يترك المراهم والأربطة مع المرضى كي يستطيعوا أن يواصلوا العلاج بعد رحيلة ، والحقيقة أن قمبر بالفعل كان مساعدا جيدا ، فقد قام بتوزيع الكينين ، وقام بعمليات خلع الأسنان ببراعة ومهارة فائقتين •

وكان قمبر يتجول في الحدائق من الاثنين الى الخميس ، وكان يصل في النهاية الى احدى العيادات الأسبوعية ، ولقد كان بكل عيادة أربعة أشخاص يقوم كل منهم بمهمة تستغرق شهرا ، ويصل في النهاية الى نتائج مماثلة لجولات قمبر في أربعة أيام ، وهكذا تمكنا من خلال هذه الخدمة المتنقلة الى نقل الكينين من مطرح الى المزارعين لمسافة ستين ميلا ، فوصلنا الى قريات ، وحيل الغاف ، ثم الى نخل ، التي تبعد خمسة وسبعين ميلا من مطرح •

وزارعو البلح في مطرح يعانون من أمراض خطيرة في عيونهم في بعض المناطق ، لذلك كان على قمبر أن يلاحظ بعناية — تبعا لخطتنا — هؤلاء الذين يحتاجون الى عمليات لعلاج انحراف الأهداب ، أو لأية عمليات جراحية أخرى وقد كنا نرسل مبارك معه مرة كل شهر ليقوم بالعمليات الصغيرة ، وبذلك استطعنا مساعدة مرضى العيون •

ووجد قمبر أن اهتمامنا بأمراض العيون كان صحيحا بالنسبة لمناطق مختلفة ، وأن حالة الرجل العادي لم تكن سيئة كما كنا نخشى • وفي بهلا — وهي مركز لحديقة صغيرة تبعد حوالى ستين ميلا من مطرح — وجد قمبر ، أن اثني عشر مريضا سيفقدون أبصارهم اذا لم تجر لهم عمليات •• لذا ذهب ومعه مبارك في الأسبوع التالى • وتوقع الاثنان أنهما سيقومان بأعمال كثيرة •

الفصل العاشر

الوصول الى البدو

رأى معظمنا عمان من خلال مسقط بسبب سفرنا بالبواخر • بومباى تتاجر مع السيب ، وصحار ، والخابورة ، عن طريق المراكب ، ويعيش ما يقرب من خمس وعشرين وألف نسمة فى هذه المراكز المتفرقة ، وكل الشئون السياسية والادارية تدور حول هذه المراكز •

أما موارد عمان فهى شمسها وأمطارها وتربتها ، ولا يمكن المقارنة بين هذه الموارد ، فالشمس هناك تكفى مدينتين ، بينما لا تكفى الأمطار مدينة واحدة ، والتربة هناك تربة حجرية ، لهذا ينظر الزائر الى عمان وهو مشفق عليها ، وسألنى أحدهم ذات مرة « لماذا يريد الناس أن يعيشوا هناك ؟ » ومن يستطيع أن يستخرج الحياة من هذه المنطقة المليئة بالجبال ، ان الماعز ليموت جوعا فى هذه الأرض القاحلة ، وهذه الحرارة الشديدة ، لكن هذا لم يحدث ، فلم يمض الماعز ، بل يعيش الماعز والجمال ، وحيث تستطيع الماعز والجمال يعيش الناس أيضا •

وفوق الصخور التى يرتعد منها الزائر ، يتجول البدو مع زوجاتهم وأطفالهم ، ومعهم الماعز والجمال ، وبين البدو والماعز تعاطف حقيقى وجب عميق يشارك فيه الرجل بالمقدرة العقلية والزعامة ، تحميه بندقيته ، بينما تشارك الماعز بالطعام المستمر ، ويستطيع الماعز أن يقضم قوته وطعامه حتى من الصخور •

وفى الشتاء عندما تسقط أمطار قليلة ، توجد كميات كبيرة من علف الحيوانات فى الوديان ، بين الجبال العالية الجرداء ، وتنمو الأشجار

الخضراء رغم صغرهما ، وبعد أن تسقط الأمطار ترى الوديان في قمة جمالها في مطرح ، لذلك تقضى الماعز والجمال وقتا طيبا .

أما في الستة شهور التالية فتشتد الحرارة . ولكن الماعز لا تجد مشقة في البحث عن العلف الجاف الذى يملأ بالتأكد الوديان في المنطقة المجاورة لمطرح ، والماعز يجب أن تشرب مرة على الأقل كل يومين ولا يمكن للماعز أن يستغنى عن الماء ، لذا يعتمد كل شئ على الآبار التى لم تجف في الصيف .

ويتجول البدوى حول الآبار ومعه الماعز والجمال ، ولا يزيد عدد القطيع عن خمسين ، وتصيد الماعز طعامها من قمم الجبال العالية ومن سفوح الوديان العميقة ، وعندما تدور سيارتنا ببطء حول الوديان كنا نرى بعض هؤلاء المتجولين ، وأحيانا كنا لا نستطيع تمييزهم وهم في الوادى الضيق ، ولكن عندما نرى الماعز ، نعلم أن الراعى في مكان قريب ، ونسمعه دائما يغنى بسعادة لنفسه وللماعز ، وهم يتجولون معا فوق الأرض الجرداء الصخرية .

والطعام لا يتوافر للبدوى والماعز في الصحراء ، فهي حياة جافة ، وكمية الطعام التى يحصل عليها البدوى والماعز أقل بكثير من الكمية التى يستخرجها زراع البلح وشريكه الثور من الحديقة فى الباطنة ، لكن حياة البدو مليئة بالحرية ، ورغم الحالة الاقتصادية السيئة فهم لا يهتمون بذلك ويعيشون فى سعادة ، وهذا انتصار للروح البشرية ، فالبدوى يأخذ الزبد من الحانوت مقابل كمية قليلة من لبن الماعز ، وكمية قليلة أيضا من البلح ، اذ أن كل طعام البدوى هو اللبن والبلح والزبد .

وفى مسقط ينتشر البدو المتمدينون ، فهم يرعون الماعز ، ويعرفون القليل عن المنازل ، وفى طريقنا الى السبب ، رأينا شرفات صغيرة من

نوع ردىء أمام فتحة عميقة فى جانب الجبل ، وهذا هو بيت الراعى البدوى وعائلته ، وبيت الماعز كذلك ، وكل ما يملكونه من أثاث هو عدة أوان ووعاء من الجلد للماء ، وإذا تحسنت أحوال المعيشة فيملكون لحافا أحمر فوق السرير ، وتتعدم الأشياء الضرورية الأخرى • وإذا افترضنا أن الحرية والمساواة والاخاء هى أسمى قيم الحياة يكون البدو ، على صحة هذا الافتراض ، هم أغنى الناس بهذه الصفات على الأرض •

وتعكس أجسام البدو القوية ووجوههم الرفيعة صبرا وجادا لا حدود له ، وفى رحلتنا الأخيرة الى سفالة هطلت الأمطار على العربية ، وأنقذتنا خيمة صغيرة • وعلى أية حال ، فلم يكثر البدو الذين كانوا يمتطون الجمال بالأمطار ، ولم يختبئوا فى الخيمة ، وسقطت الأمطار على أجسامهم فى الليل ، وجففتهم الشمس فى النهار ، وقد كانت هذه عادة شائعة ولم يعلق عليها أحد •

والبدو يتجولون أثناء النهار فى درجة حرارة كبيرة ، وهم لا يحملون معهم كسرة خبز ، وقد اعتادوا على ذلك • وحتى اذا حل الليل فانهم يطلبون القهوة قبل أى شىء آخر ، اذ أن البدوى لا يبدأ طعامه الا بعد أن تختلط العصارة المعدية بقليل من القهوة ، وفى كل مساء كان طاهى العربية يشعل نارا ويصنع القهوة فى اناء ، والقهوة هى شرابهم المنعش ، وبعد ذلك يقدمون القهوة الى ضيوفهم •

والبدو يبيع الماعز وشعرها وجلدها فى الأعياد ، التى يبدأ معها سوق البيع عندما يريد كل فرد أن يأكل اللحم ، ورغم أن الربح ضئيل لكنه يستطيع أن يعيش فى بحبوحة طول العام •

ويبيع البدو الزبد الصافى لاستخدامه فى الطهى ، ويأتى البائعون بالزبد الى السوق فى قدر من جلد صغار الماعز ، ويصنع أيضا الجبن

المخفف في الأكواخ ثم يباع ، وهي مغذية وملينة بالفيتامينات ، ومنذ عدة شهور دهشنا عندما رأينا البدو يجمعون العظام ، ويحضرونها الى مطرح ، ولا بد أنهم قد ربحوا الروبيات بهذه الطريقة ، وقد اتضح أن مشتريا أوربيا طلب هذه العظام ليستخدمها كسماد .

وفي طريق عودتنا من قريات قابلنا غلامين بدويين ، وهما يحضران الأخشاب من الغابة ، وكان عمرهما لا يزيد عن العاشرة . كان وجهاهما صارمين صغيرين ، وكانا يسرعان بالحميز تجاه مطرح لكي يصلا إليها في الصباح التالي ، ويحصلوا على روبية مقابل حمولتهما ، ويبيع البدو الأخشاب والعظام والجلود وأى شئ آخر في أيديهم ، الى جانب لبن الماعز والبلح ، لكي يضيفوا ربحا الى رزقهم الضئيل .

ويستخدم أصحاب الجمال جمالهم في نقل البلح في موسمه ، من الواحات الى المدن الساحلية ، ويعتبر هذا نشاطا أساسيا يحتاج الى وقت كثير من العمل ، وكنا نتوقع حين نسافر الى المستوصفات المنتشرة في الأماكن النائية أن نقابل العربات المحملة بالتمر .

ورغم كل الأشياء الثانوية التي يحاول البدوى القيام بها فهو يعيش مع الماعز معظم أوقات حياته ، وهو يرث الغنم ويحميها من أعدائها الكثيرين ، ففي المدن المجاورة لمطرح تمتلئ الجبال بالذئب ، وباللصوص والأشرار ، ويتجول البدوى طول اليوم مع الماعز فوق الجبال والوديان ، يذهب بهم الى الأماكن التي يتوفر بها الطعام والماء ، ومقابل ذلك يعيش البدوى على لبنها ولحمها وجلودها وشعرها ، ويعيش البدوى والماعز معا ، ويعتمد كل منهما على الآخر ، ويعيش كل منهما من أجل الآخر اذ أنهما شركاء في حياة الحرية .

والبدوى يرى العالم من خلال عيون تختلف عن عيوننا ، فعندما فتحنا الطريق الى قريات بسيارتنا ، اخترقنا طريقا ضيقا لكي نتجنب

المشاكل الخطيرة مع بدو هذه المناطق ، ولكنى فى الحقيقة كنت أشتاق الى هذه المتاعب وأنتظر رد فعلهم ، فالسيارة لا تحدث لهم أى أذى ، وقد رأوا جميعا مثل هذه الآلات فى مطرح ، لكن السيارة كانت بالنسبة لهم شيئا جديدا ، وهم لا يحبون الأشياء الجديدة ، فاحساسهم الغريزى يصور لهم — كما أتخيل — أن هذا الاختراع الجديد والبشع سينافس الجمال والماز — وهى أغلى شئ لديهم ، وسوف يشاركها طعامها الضئيل من العشب والعلف •

وهناك سبب عميق لرفضهم السيارة ، وهو أنهم يرونها على أنها مبعوث الحكومة •• ورغم أن البدو يختلفون فى أشياء كثيرة ، لكنهم يتفقون فى رفضهم للسيارة •

والبدوى يكره أى شئ يفرض عليه ، كذلك نظام القبائل يعوزه حسن المسئولية ، وعندما أرسلت لجنة البترول فى مسقط ، المنظمة حديثا ، اثنين من المهندسين لبحث امكانيات الأرض الواقعة وراء الخابورة وجدا متاعب كثيرة ، رغم أن زعيم القبيلة كان هو مرشدهما • فقد قتل مهندس وجرح آخر ، وبعد ذلك بدأ هياجهم •

ووجهة نظر البدو عن الملكية تختلف عن تصورنا نحن ، فاذا ما استولى أى فرد على أى حيوان يضل تائها فهو ملكه ، أو بالأحرى فهذا الحيوان ملك للفرد الذى يستطيع أن يحتفظ به ، واللعبة الوطنية فى الجزيرة العربية هى الغارات المتكررة بين القبائل المختلفة •

والبدوى مع عدوه وحش منتقم ، فهذه هى شهرته ، ولكنه مخلص

بشدة لأصدقائه • وقد ذهبنا الى سفالة في عربة بدو عادية ، ووجدناهم هناك رجالا غير عاديين ، تبادلنا معهم شعور الحب ، لدرجة أننا رتبنا أمرنا بأننا سنعود لهم مرة ثانية ، وكانت الرحلة شاقة ومضنية بالنسبة لنا ، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لهم •• وكنا عندما نطلب منهم شربة ماء كانوا يحضرون لنا وعاء جلديا مليئا بالماء •

وفي الأصيل توقفت العربة طلبا لراحة الغرباء ، واستضافتهم رغم أنه كان من الأفضل مواصلة السير حتى يحل الظلام •• ولكننا كنا ضيوفهم ، ولا يوجد شيء يتفوق على اهتمامهم بنا وكرمهم • وعند عودتنا كان علينا أن نحمل ألف ريال ، ويبدو أن اغراء هذا المبلغ كان يشكل خطرا في ذلك الطريق الطويل الذي نسير فيه مدة أربعة أيام قبل أن نصل الى مقصدنا •• لذا فقد طلبنا من الشيخ عيسى حاكم المدينة أن يوفد معنا قائدا رسميا للعربية •

وكان هذا القائد البدوي الذي جاء معنا رجلا نبيلًا ، ومن الصعب تخيل رجل آخر يفوقه نبلا ، وقد أتى على ظهر جمل جميل ، كان يعتنى به الى درجة كبيرة ، حتى ان سؤاله الأول كان عن أى دواء يفيد عين الجمل العمياء ، وقد أدهشتنا كفاءته وجدته في العمل ، فهو يوقظ الرجال الذين يركبون الجمال في الصباح ، ويساعدهم في وضع الأحمال في مكانها فوق ظهور الجمال ، ثم يصنع فنجان القهوة في الحال •• وهكذا تكون مصاعب اليوم قد انتهت بالنسبة له ولنا ، وقد كان هو الذي يحدد أماكن الوقوف ، وهو الذي يخطط الطريق •

وكانت أسنانه البيضاء بارزة ورغم هذا كان وجهه وسيما ، وهو

فوق ظهر جملة الرائع ، وقد كنا فخورين ومعجبين بقيادة مثل هذا البدوى الهمام ، وبشخصيته البسيطة الطبيعية فانه يكاد يكون ابن الصحراء الأصيل ، فهو لا يرتبك عند مقابلة ملك ، وعلى الجانب الآخر لا يشعر بأنه أعلى من أى رجل معه فى القافلة •

ومع ذلك فقد كان محمد — وهذا اسمه — ابن الصحراء الأصيل ، فعندما وصلنا الى مطرح أعطيناه أجرا مجزيا ، لأن مساعدته كانت واضحة ، فذهب الى الحانوت ، وأنفق كل أجره ، وجاء ليطلب مقدارا قليلا من المال حتى يستطيع العودة الى أطفاله ومعه تذكارات لم طرح ولم نخيب ظنه فينا ، وأعطيناه ما طلب •

والمستشفى لا يستطيع أن يصل الى البدو المتجولين بطريقة منتظمة لكن أحيانا كان قمبر يزورهم فى خيمهم القريبة منه ، وفى بركا يملك البدو مجموعة من الخيم شبه الدائمة والمصنوعة من سعف النخيل •

وذات صباح زرنا هذا المركز المزدهم بالماعز والجمال ، ورحب بنا الرجال ، وان كانت وجوهنا قد أثارت اهتمامهم ، ونحن جالسون فى العربة كما أثارتهم الأدوية ، وقمنا بخلع العديد من الأسنان ، وقمنا بعلاج الأمراض الأخرى • • ولكننا — ويا العجب — استخدمنا مقدارا قليلا من الكينين ، وهذا يعنى أن الملاريا نادرة هناك • • وقد اندهشنا من صلابة وقوة ونظافة أسنان البدوى ، ولكن ربما كان اللبن هو السبب ، ورغم أن تسوس الأسنان كان نادرا فقد كان التهاب اللثة منتشرا •

والجروح الناتجة من الطلقات النارية بين البدو منتشرة جدا ، منها الحديث ومنها القديم ، ولكن أصحاب الجروح الحديثة لم يكونوا يحضرون إلينا • • وقد عالجنا أصحاب الجروح بهمة ونشاط ، وان كان النزيف والانتكاسات قد تسببا فى موت عدد منهم •

الفصل الحارث عشر

الجبال والواحات

إذا كانت الجبال العارية تشكل كل المكان فالبدو المتجولون يشكلون غالبية السكان • وقد كان تعداد سكان عمان وقتها يقدر بنفس تعداد سكان مطرح في الوقت الحالى •

ولا يرى المسافر الذى يشاهد الدولة من قمة الجبل الأخضر شيئاً يوحي بإمكانية وجود حديقة أو حقل فى أى مكان ، فهى مساحة شاسعة من الصخور الجافة العارية ولا تكفى كمية الأمطار التى تسقط هناك لزراعة أية نباتات •

ولكن توجد الينابيع المتدفقة فى الوديان المهجورة ، والتى يمكن عن طريقها رى الحدائق الخصبة ، والتى تؤدى الى وجود جماعات أكبر عدداً من البدو • وحينما توجد مثل هذه الحياة يظهر النخيل بقممه المكسوة بالسعف وظلاله السخية • • وأشجار النخيل تعتبر علامة واضحة لنعمة داخلية وروحانية ، فالمياه فى الجزيرة العربية هى نعمة الله للإنسان كى يعيش •

والشائع عن الإيطالى أنه حيثما ذهب فهو يزرع كرمة العنب ، أما العربى فهو حيثما يعيش فإن النخيل يظل بيته • فالبدو يعيش مع الماعز ، وبها ومن أجلها ، وكذلك عرب الواحات يعيشون بأشجار النخيل ومن أجلها •

وإذا ما سألت هؤلاء الناس لماذا لا ينوعون محاصيلهم ، ولماذا لا

يهتمون بنوع آخر من الأشجار ؟ • فلن تجد الإجابة •• وإن لم يكن هناك مجال للشك في أن أشجار النخيل في الجزيرة العربية تساعد على وجود حياة بشرية •• والبلاد ككل تعد صحراء خالية ، ودرجة الحرارة هناك مرتفعة للغاية ، وتعتبر الواحة الموجودة حول ينبوع المتدفق مكانا جميلا جدا فهي موطن حقيقى للسلام •

وتحتاج الواحة الى كمية هائلة من المياه ، وبعض الينابيع ضخمة جدا •• ففي سمائل على سبيل المثال تمتد الحدائق بين الجبال على كلا الجانبين لمسافة خمسة عشر ميلا •• ويقوم العرب بالبحث عن مصادر المياه المختلفة •• ويعتبر نهر الفرات الذى يبعد بمسافة ألف ميل مصدرا مفضلا للمياه •• ولكن الأمطار هى التى تمد هذه الينابيع بالمياه ، وهناك دليل على ذلك ، ففي العامين الماضيين عندما توقفت الأمطار انخفضت الينابيع واختفى بعضها تماما •

وابان زيارتنا الأخيرة في « الهيبوية » ماتت أشجار الزيزفون ، وعاش نخيل البلح بصعوبة •

وبالتأكيد اذا لم تكن مياه الأمطار على صورة أفضل هذا العام فانه يتحتم أن يهجر الناس هذه الحدائق ويرحلون عنها •

والواحات ضيقة تمتد بين الجبال ، وأحيانا يصل طولها الى أميال ، ولكن من النادر أن يزيد عرضها عن نصف ميل ، ولا يمكن زراعة حوض الوادى بأشجار النخيل ، فهناك سيل جارف يتجه الى البحر ، ويحدث ذلك مرتين كل عام •

وفي هذا العالم الجبلى يعتمد كل شئ على الينابيع ، وهى موضع اهتمام بالغ ، ويسير ينبوع من خلال أنفاق تحت الأرض لمسافة خمسة

أميال ، ثم بعد ذلك من خلال قناة على سطح الأرض لمسافة ميل آخر ، وذلك قبل أن تستخدم المياه ، وتصل الآبار الى عمق مائة قدم أو أقل ، وهى عميقة لدرجة أنه عندما يتم توصيلها من القاع بنفق فالقناة الناتجة تكون ذات انحدار طفيف ، ولكنه مناسب لاجداث تدفق قوى للمياه . ويتم وضع الأحجار بعناية فى الأنفاق ليكون من السهل المحافظة على القنوات السفلى صافية المياه .

وللحق فلم أشاهد ، بل ولم أسمع على عملية فتح قناة جديدة ، فكل القنوات التى نراها الآن لا حصر لها ، ومن المحتمل أن يصل عمرها الى مئات السنين ، ومن الواضح أن مجتمع عمان قد فقد جزءا كبيرا من قدرته على التعاون فى هذه المشروعات الجماعية لدرجة أنه أصبح من الصعب الحفاظ على قنوات المياه .

وزارعو البلح فى السواقم يفسرون هذا الموضوع الى حد ما
فقنوات المياه التى تخصهم تحتاج الى تنظيف دقيق ، وبعبارة كل عشر سنوات ، هذا اذا ما أراوا الحفاظ على تدفق المياه ، وهناك أشياء كثيرة لا غنى عنها ، ومن الأفضل أن تتم بصورة اعتيادية ، وقد تمت اثارة المسألة لعدة سنوات قريبة بسبب نقص التدفق فى المياه ، والاعداد لهذه المسألة يتم بصعوبة بالغة ، لأنه يجب تقسيم التكاليف بين عدد من الملاك ، يعيشون على مسافات متباعدة ، ويهتمون بزراعة الحدائق فقط ، لأنها تدر ربحا نتيجة للأحوال التى استثمروها فيها ، وتبلغ التكاليف النهائية لعمليات التطهير الى جانب الصيانة حوالى ثمانمائة روبية ، وقد أحدث نقص المياه فى الوقت الحاضر ضغطا شديدا على زارعى الحدائق ، لأن محاصيلهم الصغيرة الخاصة هى التى تتأثر بهذا الانخفاض أولا .

أما النخيل الذي يقدم للملاك أرباحهم ، فهو آخر شيء يعانى من ذلك ، وكان من المعتاد أن نمر كلما ذهبنا الى السواقم بحديقتين مهجورتين ، انعدم توفيق المياه فيهما تماما ، ربما بسبب اهمال القنوات •

وتعتبر بعض الواحات — التى تؤدي تلك الينابيع الى وجودها — مدنا حقيقيا •• وواحة سمائل هى أكبر الواحات ، وتمتد حدائقها لأميال وأميال بين الجبال ، وتصل واحة نخل الى نفس الحجم ، وأيضا واحتا الرستاق ونزوى •

ومنذ سنوات عندما قام أحد الخبراء الأمريكيين بزيارة عمان قررا أنه — فى اعتقاده — أن زراعة البلح والعناية به قد وصلت الى درجة أعلى فى سمائل منها فى أى مكان آخر فى العالم ، فهناك تتم زراعة أفضل الأنواع ، والحصول على أعلى الأسعار •• وعلى المزارعين فقط توجيه المياه المتدفقة الى سقى الأشجار والعناية بهذه الأشجار •

وتعد الحاجر جوهرة صغيرة بين الواحات الجبلية ، ففيها ينبع يروى خمسة آلاف شجرة نخيل ، وقد أنتجت إحدى حدائقها فى العام الماضى ما قيمته ١١٧ جنيها للشجرة الواحدة ، وهناك يجرى البحث فى امداد المياه بعناية ، وتستخدم بنجاح أكبر مما يحدث فى الباطنة ، فى الوقت الذى يوجد فى كل مكان قنوات من الأسمنت لمنع التسرب ، ولم يتم بذل أى مجهود لزراعة أشجار أكثر مما تسمح به المياه المتاحة ، أما حدائق وادى المعاول ونخل فالذهب اليها متعة ما بعدها متعة ، خاصة بعد السفر عبر الصحراء لمسافة عشرين ميلا ، وهناك يبدو نخيل البلح فى خضرته النضرة سعيدا وقانعا بالغذاء الكافى الذى يحصل عليه •

وهناك أعداد لا حصر لها من هذه الواحات تجدها منتشرة خلال

الجبـال في عمان ، وفي حقيقة الأمر اذا نحن أحصينا الواحات الصغيرة فانها تصل الى مائتين أو ثلاثمائة ومعظم هذه الواحات صغيرة جدا •

ويقدر العرب سكان هذه الواحات بضعف تعداد سكان الباطنة ، فاذا كان سكان الباطنة يبلغون مائة ألف نسمة فسكان واحات عمان يصلون الى مائتى ألف نسمة •

وأحوال المعيشة هناك أفضل بكثير عنها في الباطنة ، فهناك بعض الحدائق يقوم ملاكها بزراعتها ، وحتى عندما يعمل الأجراء لصالح أحد الملاك المتغيين فانه يعاملهم بصورة أفضل ، والقانون الأساسى هو أن الزارع يأخذ محصول فرع واحد من البلح عن كل شجرة نخيل ، وان كان هذا الفرع يساوى اثنين آخرين فهو يختار الأفضل بلا شك ، ويصل في معظم الأحوال الى حوالى ثمن المحصول كله ، وفي كثير من الأماكن يكون نصيب الزارع تقديريا ، وبالإضافة الى ذلك يصرح لزارعى الواحات الجبلية بزراعة محاصيل صغيرة خاصة بهم ، تشمل الخضروات والقت « الفصفص » والموز وعندما تتوافر المياه يسود الفرح والرخاء بين الناس ، فتراهم في ملابس زاهية للأعياد ، ونجد المدارس لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، ففي السواقم كان كل الأطفال الذين رأيتهم يدرسون بالمدارس •

ولكن حين يتناقص سقوط المطر وينخفض تدفق الينابيع ينخفض مستوى المعيشة معها ، وتختفى المدارس والملابس الزاهية ، وحين تكون المياه المتاحة كافية للنخيل فقط يستطيع المزارع رى محاصيله الخاصة ، ولكن الكارثة الكبرى تحدث اذا استمر القحط فترة طويلة •• اذ يرحل السكان ، ويختفى كل شىء ، وقد حدث ذلك في كثير من الأماكن في عمان ، ففيما بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠ مرت احدى الواحات بقحط شديد ، أدى الى هجرة السكان منها •

ومنذ حوالي أربعين أو خمسين سنة حدث نفس الشيء لوادى المعاول ، وقد أخبرنا أصدقائنا في واحة أفي — وهي واحدة من أغني الواحات في عمان كلها — عن الوقت الذي رحل فيه السكان عن الواحة بسبب القحط الذي استمر سنوات وسنوات ، وأضافوا أنهم عادوا مرة ثانية • بعد أن عاد المطر مرة ثانية ، وأنهم منذ ذلك الحين وهم يعيشون في رخاء عظيم ، وليست هناك جماعة في عمان لا تشعر بتهديد القحط بصورة مستمرة ، فعندما تمر سنة واحدة بلا أمطار كما حدث أخيرا في مسقط فإن وجوه الناس تكون عابسة ، وقلوبهم منقبضة ، مليئة بالخوف ، فبدون الماء لا يستطيع انسان أن يبقى على قيد الحياة •

ولكن •• لنعد مرة أخرى الى المستشفى •• فهو يخدم مطرح ، ولكن من أجل الوصول الى عمان ، وهذه مهمة شاقة وعسيرة ، فعمان اقليم ضخم ، والقافلة تستغرق عشرة أيام لكي تسافر من جهة الى أخرى •

وقد خدم المستشفى حتى الآن عشر سنوات ، وخلال هذا الوقت كنا نحاول اختراق هذه البلاد الداخلية ، ولكن الأسباب السياسية والدينية كانت تتآمر لكي تبعدنا ، بينما تتآمر الميكروبات التي تحمل الأمراض ، ومعها اصابات الأعيرة النارية لكي تضطربنا للدخول ، ويصاب سكان المناطق النائية بالأمراض ، وبالتأكيد ليست أمراضهم أكثر من أمراض مطرح ، ولكن الصعوبة في تعذر الوصول اليهم •

وفي أحد الأيام وصلني خطاب من الشيخ سليمان بن حمير ، وهو رجل مهذب ، والالتقاء به شيء لطيف ، وقد استطاع أن يحافظ على كل أراضى والده •• ولكنه ليس سعيدا ، فجهده في تربية أسرة صالحة من الأولاد لم تكن ناجحة تماما •• وقد كان ولده مريضا •• ولكن هل باستطاعتي أن أذهب في الحال ، وأرى ما يمكن اتخاذه من علاج ؟ ان الرسول الذي حمل الرسالة سوف يقوم بكل الاجراءات •• ورغم أن ذلك

يبدو ملائما الا أن الولد الصغير على مسافة بعيدة — على الجانب الآخر من الجبل الأخضر ، أطول جبل في كل سلاسل عمان — وتصل بعض قممه الى عشرة آلاف قدم تقريبا .

وعلى أية حال لم يكن هناك سبيل لتخفيف المشكلة ، فليس لدى المستشفى طائرات •• وعلى هذا تركنا المستشفى أسبوعا ، ودعونا السائق محمدا وسألناه عن حالة الاطارات ، وأخبرناه بأننا سنسافر في الغد .

ورغم الاطارات الضعيفة فقد اعتقد محمد أنها يمكن أن تصل بنا الى العوابى ، وهى منتصف الطريق الى تنوف ، وبالفعل أنقذتنا السيارة من ركوب الجمال لمدة ثلاثة أيام ، وقد بقينا على الطريق طوال الليل بسبب ثقب فى الاطار ، ولكننا دخلنا العوابى ، وكانت السيارات الأجرة موجودة هناك منذ فترة ، ولكن سيارة المستشفى هى التى اخترقت ذلك الطريق بالذات .

وكان النوبى معنا ، فتركناه فى العوابى مع السيارة ، ووضعنا كل شىء فى كيس معنا •• وظل النوبى مع السيارة لمدة أربعة أيام حتى عدنا ، وكان رسول الشيخ سليمان معنا ، وكانت كلمته كافية ، فأحضروا عددا من الحمير ، لكى نختار أفضلها ، من أجل رحلتنا الخاصة ، ولكن العجيب هو حجم هذه الحمير ، فلم أشاهد حميرا مثلها فى أى مكان آخر فقد كانت أقرب بالبغال منها بالحمير •• ، وعلى أية حال فلم تدهشنى الحمير قدر ما أدهشنى سرجها غير العادى ، فقد كانت سرج الحمير ذات حجم هائل للغاية ، وكان على أن أستقر بين سمنين للسرج فوق الحمار على

ارتفاع قدم .. وسارت الحمير في طريق صخري غريب دون دليل سوى أنوفها .. وأخذت الحمير تصعد بين الجبال وهي تتأصل بصعوبة حتى صعدنا على سهل واسع .. وقد كانت ليلة غريبة ، فالجلوس على ظهر حمار يلهث في نضاله من أجل ارتقاء الصخور الهائلة لهو عمل شاق وصعب .

وجاء النهار لكي يظهر منظرا بديعا ، فعلى اليمين قمة يصل ارتفاعها الى عشرة آلاف قدم .. وأمامنا صخور ملونة .. وعمودان هائلان ربما يصل ارتفاعهما الى خمسمائة قدم .

الفصل الثاني عشر

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية

لقد عشت في كثير من الأماكن البدائية ، ولكن سفالة كانت مكانا فريدا ، فلم أكن أتوقع أن نجد كل هذا الضيق والشدة ، فجمال الحدائق هناك يدعوكم سريعا الى المقارنة بينه وبين الحالة الاقتصادية السيئة المتوفرة في مكان .

اننى أشك في امكانية وجود حدائق أجمل من تلك في أية بقعة أخرى في عمان ، ان أحسن أنواع التمر الجاف التي تذهب الى أسواق بومباي تأتي من هذه المنطقة .

وتتراوح أعمار أشجار النخيل هناك ما بين ثمانى الى عشر سنوات . وعلى الأشجار الكبيرة تظهر آثار سنوات القحط ، ولكنها مع ذلك تتمتع بجمالها ، وعندما شاهدنا الحقول الخضراء المليئة بالبرسيم والشعير والقمح توقعنا أن نجد أسلوبا ثريا للحياة بين السكان ، لكن ذلك كان شيئا بعيدا عن الحقيقة .

وكنتم أظن أن السمك المالح هو أرخص وأقل أنواع البروتين المطلوبة في العالم ، ولكن كم كانت دهشتى حين رأيت سكان مطرح يعتبرونه هو البروتين الوحيد بالنسبة لحياتهم القاسية ، فالتجارة العادية بين قبائل البدو في الصحراء والسكان الذين يقيمون في الواحة ، هي تبادل منتجات أشجار النخيل ، وضأن الماعز الطازج لا يغيب عن أسواق الحساء أو الرياض .

ويحضر البدوى الزبد الصافي المصنوع من لبن الماعز ، وهو نوع المسلى الوحيد الذى تعرفه الواحة ، وهناك أيضا بعض من جلود الحيوان والأقمشة الخشنة المصنوعة من شعر الماعز ، وفى مقابل هذه الأشياء ، يحمل البدو الى ديارهم التمر الذى يكملون به وجبتهم من لبن الماعز •

وتعيش المجتمعات هناك فى علاقة تكامل ، والبدوى يملك الكثير من الحرية • وأهم من ذلك كله فهو غير مضطر للعمل ، فالمقيم فى الواحة لديه وجبة متنوعة ، وان اختلطت بقدر من الملاريا وكثير من العمل الشاق ، ولكننا وجدنا اقتصاديات الشرقية تسير بصورة سيئة على غير المعتاد ، فقد كان البدو يحضرون كمية صغيرة من الزبد الصافى لبيعها فى سفالة ، وكان اللحم الطازج نادرا هناك ، وكان الشئ الوحيد الذى يمكنك أن تجده هو السمك المملح القادم من مطرح ، وليس هناك دليل أقوى من هذا على الحالة الاقتصادية السيئة •

وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك أوقات كان فيها ثمن اللحم ومسلى الطعام البدوى أقل بكثير مما يدفع فى سفالة ثمننا لمواد غذائية أقل قيمة ، ولم يكن من الصعب اكتشاف السبب • فقد كان ذلك نتيجة القحط الكبير الذى حدث فى العشرين عاما الماضية ، فقد رجل الناس بعد ذلك بعيدا ، لقد انتقلوا الى الواحة الصغيرة ولكنهم تشبثوا بالحدائق ، والآن وبعد عودة المطر فلا زالوا ، يمتلكونها ، واتجه الأغنياء الى زنجبار وظلوا فى زنجبار ، بينما كان المستأجرون يزرعون لهم الأشجار ، وكان انتاج هذه الحدائق لا يتم تبادله مع البدو ، فقد كان يرسل الى مطرح حيث يباع هناك ، ثم ترسل الأرباح الى أفريقية ، ويذهب جزء من هذه الأرباح لشراء السمك المملح من أسواق مطرح للمستأجرين فى سفالة •

ولكى نكمل النظرة العامة لهذا الموقف غير الطبيعى فقد كنا نرى

المنظر الغريب لبدو الشرقية وهم يشقرون ثمرهم في مطرح ، ويحملونه عائدين الى ديارهم ، فقد كان كل من سكان الواحة والبدو يتبادلون منتجاتهم مقابل ما يمكن أن يقدمه لهم سوق مطرح ، وباجحاف مالى واضح ، وكان التجار الهنود يودعون جزءا من أرباح منتجات البدو في بنوك بومباي ، ولقد جعلت الملكية الأجنبية لحدائق التمر كلا من الواحة والبدو تابعين لمطرح ، بينما كان الواجب أن يعتمد كل منهما على الآخر •

لقد كنا نستطيع في أى مكان نزلنا به أن ننقذ أنفسنا من الجوع الشديد بالبحث عن الدواجن والتهامها ، أما في هذا المجتمع الصحراوي فقد كان النوع الوحيد من الدواجن التى تباع هو الديوك التى كنا نسمع صياحها كل صباح ، ولكن الحصول عليها كان أمرا بعيد المنال ، فقد جمعنا في أسابيع عديدة أربعة ديوك فقط ، فلم نكن نجد في أى سوق شيئا من هذه الدواجن للبيع ، وكان ذلك أمرا مدهشا مما دعانا للتحري عن هذا ، فاكشفنا أننا نتعامل هنا ليس مع اقتصاديات ثابتة ولكنها أشياء تعود الى روحانيات كانت منتشرة قبل انتشار الاسلام •

المهم لنترك ذلك الآن لأنه سيكون من الممتع للقارىء أن يعرف أكثر عن الجزيرة العربية خلال العصور الاسلامية ، فهناك تأثير للعاطفة الدينية بين البلوش في مسقط ، ولكنهم أناس عمليون ، بدرجة لا تسمح لهم باحداث أى اختلاف في التجارة اليومية ، فالعادات التى تمنع حبس الدواجن وذبحها تعتبر معوقا حقيقيا للمجتمع ، ذلك لأن الدجاج يمثل اسهاما كبيرا في مصادر الغذاء لسكان المجتمع البدائي ، ورعاية الدواجن تتم في أراضى الرعى مع الماعز وهى لا تكلف أصحابها شيئا ، ورغم ذلك تعود عليهم بكمية وفيرة من الغذاء •

وكنا أثناء جولتنا نقابل مرارا عادات من مثل هذا النوع ، ومنذ سنوات مضت عندما كنت أقوم بزيارة أبى ظبى ، قابلت مجموعة من

الزائرين من الجبال الواقعة وراء رأس الخيمة ، وقد كانوا يتحدثون العربية باتقان مع الآخرين ، ولكنهم فيما بينهم يتحدثون بلهجة ثانية تبدو مختلفة تماما ، وقد تأكدت أن نساءهم لا يعرفن اللغة العربية على الاطلاق ، وقد كانوا من أتباع الدين الاسلامى المتطرفين حتى فيما يتعلق بالصلاة فى المسجد •

وذات مرة عندما كنت أزور صحار ، توقف العمل الطبى لعدة أيام ففقد جاء العيد الكبير ، واعتقد كل فرد أن مهمته الرئيسية هى الاحتفال بهذا العيد •

فقد تجمع تجار المدينة المختلفين فى ذلك الوقت فى طوائف ، وأرسلت كل طائفة مجموعة كبيرة منها الى الميدان العام أمضت بعد الظهر بأكملها فى الرقص بالسيف ، وكان هناك حوالى أربع وعشرين جماعة ، منهم الحدادون ، والنجارون ، والصباغون ، وأصحاب الحرف الأخرى •

وكنا قد قمنا بجولة فى مطرح منذ عشر سنوات قبل اقامة المستشفى ، وبينما كنا هناك حانت الفرصة لمشاهدة خسوف القمر كما يشاهده البلوش ، ولم يكن خسوف القمر أمرا مفرعا بالنسبة لنا ، ولكنه كان كذلك فى أماكن أخرى ، وللحق أقول انه لم يكن هناك مكان للخوف من الخسوف بين المسلمين ، ولكن كان من الواضح أن الخسوف كان حدثا مخيفا أيام الجاهلية ، كما يسمى العرب الأيام التى سبقت مجىء النبى محمد عليه الصلاة والسلام •

وكان الجو فى تلك الليلة التى قضيناها فى مطرح مفعما بالتوجس والترقب ، وقد قال البعض : ان خسوفا كليا سوف يحدث للقمر ، ولقد تعرفت على الجو فى المدينة عن طريق مبارك ، فهو بلوشى ويعرفهم •• وفجأة شاهدت أنا ومبارك بدء الأنشطة الليلية حين أصبح الطرف الأول من

ظل الأرض يمكن مشاهدته على سطح القمر ، وبدأت بيوت المدينة كلها منهمكة في طحن البن في الأهوان مما أعطى احساسا يشبه النحاسية التي تعزف بفوضى شديدة ودون نظام .. تلك الفرقة التي لا يملك أفرادها شيئا سوى الطبول القارعة .

وبينما كنا نستمع الى ذلك الضجيج بدأت أصوات الأطفال تضيف شيئا الى الأوركسترا النحاسية الصاخبة ، وقد كانت مجموعات من الأولاد تقطع الشوارع جيئة وذهابا ، وهم يهتفون في دعواتهم ، بأصوات عالية ، وللحق فقد كانت هناك موسيقى حقيقية في هتافهم .

كانت مجموعة منهم تقترب ، بينما تبتعد الأخرى ، وكان كل منزل يرد على الأولاد بنفس الدعوات كلما مروا عليه ، وامتلا الجو بالتوجس والخوف والندم .. بسبب هذه الأوركسترا الكبيرة التي تختلط موسيقاها بأصوات الأطفال لمدة نصف ساعة ، حتى ارتفع في الهواء الساكن الصوت الجهير العظيم ، لمام مسجد المدينة بنداء « الله أكبر .. الله أكبر ، حى على الصلاة » .

وقد كان هذا الصوت الرائع تجسيما لتلك العقيدة الدالة على الثقة ، وتجمع الناس في مطرح للصلاة ، لقد كان هناك محرك غريب للمشاعر في ذلك الصراع الرائع الذي استمر طيلة أربع ساعات بين صوت المؤذن الدال على الثقة بالنفس وعلى العقيدة الشامخة ، وبين ذلك الخوف الذي أحدثته الفرقة النحاسية الكبيرة وأصوات الصبية في عقول الرجال والنساء .

وكانت الدعوة للصلاة في المدينة تتم كل خمس عشرة دقيقة ، ولمدة طويلة بعد منتصف الليل ، ولكن الصوت لم يضعف ، ولم تثبط همته ، فقد كان الصوت رنانا واثقا ، ومسيطرا في نهايته كبدايته ، ولكن تلك

الأوركسترا تلاشت مع المخاوف الرهيبة تدريجيا .. فقد كان النصر حليف
صوت الايمان •

وبعد أن سكن كل شيء بفترة طويلة كانت الرسالة العظيمة ما تزال
تدوى كل خمس عشرة دقيقة « الله أكبر » ، وحتى الانسان الغريب فقد
كان بإمكانه أن يشعر بتلاشي الخوف من الجو بعد منتصف الليل ، وبانتمصار
الايمان من خلال مسجد المدينة ، حقا .. لقد عرفت في هذه الليلة قوة
العقيدة الاسلامية كما لم أعرفها قبلا ، فقد كان الرجال الذين كان الخوف
يملا قلوبهم منذ لحظة واثقين بأنفسهم تملأهم السعادة ، وهناك ركن في
علم النفس الخاص بنا يشعر بقيمة هذا النوع من العقيدة الدينية المهابة ،
وهناك ركن آخر بفضل رسالة الامام « الله أكبر » •

لقد ذهب جميعنا الى الفراش بعد ذلك ، وأعتقد أن الامام في
المسجد قد فعل ذلك أيضا في النهاية •

فقد كان التوجس والفرع الذي بدأ به الليل مازال حيا في عقولنا
عندما سألت مبارك :

« هل يعتقد الناس فعلا أن العقرب قد التهم القمر ؟ »

فرد قائلا : « كلنا كان يعرف أنه في ليلة الخسوف كانت أشياء
رهيبة سوف تحدث لنا ، لولا استغفارنا المكثف جدا » قلت : « حسنا
ولكن هذا الاستغفار المكثف هل سيستمر الى الغد ؟ »

« لا لن يستمر ذلك الى الغد .. ان هذا النوع من الاستغفار خاص
بهذه الليلة فقط » •

ومن الانصاف أن نضيف أنه في جولاتنا الطبية رأينا أيضا فضائل
من جوانب الدين الاسلامي •

ان المدن الساحلية مكان غير ملائم لدراسة الدين ، فهي عبارة عن
مستعمرات للمهاجرين ، والمال متوافر نسبيا في الأسواق التجارية
بها ، وحيث يتوافر المال لا يتوافر الدين ، فقد زارنا أحد الهنود
المسلمين جدا في مطرح منذ سنوات قليلة ، وكان هذا الهندي يسافر
عن طريق الموانئ المختلفة الى مدن الجزيرة العربية تحت رعاية واحد من
حكام الجزيرة العربية ، وكان هذا الهندي قد أخذ يجهز لتأليف كتاب
يمجد فيه فضائل الاسلام في الأراضي البعيدة التي ينتشر فيها ،
ولكن ما وجدته أوهن من عزمته لدرجة أنني أخشى ألا يكون كتابه هذا
قد ظهر الى الآن ، فقد ذهب الى المدن الساحلية ، ولو أنه ذهب الى القرى
الداخلية الصغيرة لكانت أمدته بمادة أفضل للكتابة ••

ولكى أدلل على كلامي هذا سوف أحكى قصة صغيرة جدا حدثت
لى مع الشيخ عيسى ، فعندما اقترحت عليه أن أعطيه حقنة تقوى
صحته قليلا قال لى : « أنا لا أعرف ان كان ذلك يتداخل مع صلواتي
أم لا » ؟ فهل هناك حاكم في أية مدينة ساحلية يمكنه أن يسأل مثل هذا
السؤال ؟ ان الدين يعنى الكثير بالنسبة للرجال والنساء في تلك الضواحي
المترامية الأطراف ، وقد رأيت صلوات دينية جميلة في تلك الرحلات ، ولكن
احداها والتي رسخت في عقلى كانت في عجمان ، فعلى طول ذلك الساحل
بيدأ كل مجتمع •• العيد الكبير ، باجتماع في الصلاة التي تقام عقب
شروق الشمس •

وكان هذا الاجتماع يعقد على بعد نحو ميل من المدينة ، على طرف
الصحراء ، وكانت أشجار النخيل تنتشر متفرقة خلال الكثبان الرملية
الهائلة مما يعطى انطباعا بوجود متنزه جميل جدا ، وكان كل رجال

المدينة هناك يرتدون ملابسهم الجديدة ، وكان المصلون يولون وجوههم تجاه الكعبة في مكة ، وكانت السماء الزرقاء فوقنا والكثبان الرملية بلونها الجميل أسفلنا ، وأشجار النخيل المنتشرة حولنا قد أضافت للمكان أثرا عظيما ، وكان الامام يؤم المصلين الذين كانوا يتبعونه بكلمة « آمين » في صوت واحد ، وسرى جو من الفرحة بيوم العيد في ذلك الوقت •

وانتهت تلك الصلاة بطلقة مدوية من مدفع ضخمة ردت عليها طلقة أخرى من الغرب معلنة أن الصلاة قد انتهت أيضا في أم القوين ، وبعد ثوان أتى صوت طلقة أخرى من الشرق ، بانتهاء الصلاة في الشارقة أيضا ، والحق أقول اننى لم أر في حياتى صلوات دينية نجحت كهذه الصلوات في تجميع كل الاخوة المسلمين •

وعمان ليست اقليما متعصبا ، فالتعاليم الدينية والروح الدينية متسامحة ، ولكن العمانيين أعضاء في طائفة اسلامية سميت على اسم واحد من مؤسسيها « هو عبد الله بن إياض » وفي أيام دمشق وبغداد انفصل هؤلاء الاباضيون عن البنيان الرئيسى للمجتمع الاسلامى وجاءوا الى عمان ، واختلافاتهم عن الأصل بسيطة جدا ، ولكنها تبدو هامة في عمان ، وعندما زرت الشيخ عيسى أكبر رئيس للاباضيين كانت حجرة الاستقبال مليئة بالزوار العرب ، وعلمت أنهم قد جاءوا ليحيلوا نزاعا الى الشيخ الكبير ليحكم فيه ، وكان احترامهم الشخصى له كبيرا •

وعلى النساء تحمل الأعباء الثقيلة في داخل عمان كما يتحملنها في مطرح ، ولكن لديهن وقت أفضل كثيرا عن غيرهن في أى مكان آخر في الجزيرة العربية ، وفي سفالة اختفى الحجاب تقريبا ، وتقوم النساء بتغطية منطقة الفم والذقن فقط ، وتتعلم كثير من البنات القراءة ، ويدرس الأولاد والبنات الصغار معا في نفس المدرسة ، وكان عدد الأولاد يزيد عن عدد البنات في المدارس التى شاهدها ، وكان هناك زعم بأن تعليم

النساء يسير جنباً الى جنب مع الرجال ، ولا تزال بعض الملامح غير العادية الخاصة بالنساء موجودة هناك ، وبخاصة في مساجد الصلاة الخاصة بالنساء .. رغم أنني أعلم أن مثل هذه المساجد غير موجودة على الاطلاق في أى مكان آخر •

لقد رأينا أنماطاً كثيرة من النساء في رحلات من هذا النوع فهن يأتين الى العيادة بأعداد كبيرة ، ولكنهن يعجزن عن تنظيم أنفسهن كما يفعل الرجال ، فعندما يأتى وقتهن يسود الارتباك ، فكل واحدة تصر على أن تكون الأولى مما يخلق اضطراباً لا حدود له •

واليك أيها القارئ جانب من الأحاديث التى تدور بينهن حول علاجهن ، تقول واحدة للأخرى « كيف يمكن أن أجلس هناك ويرانى أحد الرجال » ؟ فترد الأخرى « انك تستطيعين بالتأكيد .. فهو لن يتحدث معك ، سيبدأ العلاج على الفور » .. وهكذا الى ما لا نهاية حتى تستجيب السيدة الى إلحاح من صاحبها وتجلس بنفسها أمام الطبيب ، وهى تجيب عن الأسئلة بحياء غريب يستغرق وقتاً .. وكأنها قد وضعت نفسها فى مأزق خطير عندما سمحت لنفسها بالذهاب للطبيب •

الفصل الثالث عشر

المستقبل

كيف سيكون مستشفى المستقبل ؟ انه سيكون وبلاشك ضعف حجم المستشفى الموجود الآن •

وسوف تتوفر الإقامة لمائة مريض على الأقل اذا كان علينا أن نخدم مجتمعا يبلغ تعداد سكانه ثلاثمائة ألف نسمة •• ويجب أن يتوافر جهاز أشعة اكس ، وكذا معمل للباثولوجى ، وسينبغى علينا أن نقوم بتدريب أحد الفنيين الأكفاء •• وسوف تجرى دراسات لعمليات التحول الغذائى وكيمياء الدم ، والكثير من الأشياء الأخرى التى ينبغى على المستشفيات المتقدمة أن تقوم بها •

ولكن من ناحية أخرى فسيكون مستشفى المستقبل وببساطة امتدادا للمستشفى الحاضر ، ففى ذلك المستشفى يسترد المرضى عافيتهم بعد فترة النقاهة ، وسوف يحاطون بنفس ظروف المعيشة التى تركوها قبل مجيئهم الى المستشفى والتى سيعودون اليها بمجرد أن يخرجوا من المستشفى ، فالمرضى ينامون على الأرض الآن ، وسيظلون على هذا الحال بعد خمسين عاما من الآن حتى عندما نصل الى حلمنا المثالى بتوفير الأسرة ، فسيكونون مفضلين النوم على الأرض ، وسوف يقومون بطهى الطعام فى حجراتهم ، ويلعبون مع أولادهم الصغار ، وسوف ترعاهم زوجاتهم •

ان مستشفى من هذا النوع يمكن أن يكون معهدا تعليميا •• ففى يوم ما سترى الممرضة ما يجرى أمامها ، وسوف تدرب زوجات المرضى على رعايتهم ، وبالتأكيد ستكون هؤلاء النسوة تلميذات حجرات ، وان

كل بيت من بيوت المرضى يمكن أن تكون أرضيته من الأسمنت ، كما هو الحال عندنا ، وبمثل هذه الأرضيات وبقليل من التوجيه يمكن أن يتعود المرضى نظافتها ، وسوف تكون هناك دروس في تغذية الأطفال ، وفي رعاية الطفل ، وفي أشياء أخرى كثيرة •

كل ذلك يمكن أن يتم في دورة من ثلاثة أسابيع ، وبانتهاء هذه الفترة كبدائية ، فهناك عدد لا حصر له من المشاريع التي يمكن أن تنقلها الممرضة لخريجاتها في دورة الأسابيع الثلاثة ، وفي دولة مثل عمان فالصحة والعيون وكل شيء يعد مشكلة تعليمية أكثر منها مشكلة علاجية •

ويوما ما ستنشر الممرضات حتى يصبحن اللمسة التي تسكن الآلام ، والموسيقى الهادئة التي يجلب صوتها الطمأنينة لقلوب النساء ، وسوف يصبحن في ذات الوقت مدرسات يوجهن عقول الآخرين •

وسوف تصبح الممرضة راعية مسئولة عن ناحيتين ، وهما جهل النساء ومعاملتهن ، وبالتأكيد سوف تتجح الممرضة في تغير شكل هاتين الناحيتين وستصبح مستشفى مطرح أداة في يديها •

وسوف تضم المستشفى عددا كبيرا من العاملين الإداريين بالإضافة الى أحد الفنيين المهرة للإشراف على عدد هائل من أجهزة التشخيص ، وسوف يكون هناك فريق مدرب على أعمال الاسعاف ، وينبغي ألا يتم استقدام أعضاء هذا الفريق من الخارج ، بل يجب أن يكون من أصل البلاد الذين يمكنهم تلقي التدريب على هذا العمل • وينبغي أن نلقى الضوء على هذه النقطة بالذات ، فمن السهل الحصول على غرباء أكفاء لكل الوظائف • لكن المستشفى الذي نحلم به من الأفضل أن ينشأ بصورة بطيئة ، وأن يظل عربيا عن أن يصبح شيئا أجنبيا بين يوم وليلة •

ان المستشفى التى ستحتوى مائة مريض بداخله ، فضلا عن ضعف هذا العدد فى العيادة الخارجية ، ومنهم من سيقابلون الممرضات اللاتى يحملن رسالة النظافة والصحة للمجتمع كله .. وتلك المستشفى لن تحتاج الى طبيب واحد فقط بل الى ستة أطباء ، ولنقل ان اثنين منهم سيتوليان منصب الادارة ، حيث ستتوافر لديهما سنوات الخبرة والكفاءة الكبيرة ، وسوف يعمل تحت ادارتهما أربعة أطباء امتياز سيأتون من المدارس الطبية فى بيروت وبغداد .. وأطباء الامتياز هؤلاء بعد أربع أو خمس سنوات سيصبحون ذوى كفاءة وخبرة من الدرجة الأولى ، وسيكون التدريب واحدا من أهم الوظائف التى سينفذها مثل هذا المستشفى .

هذه بالفعل رؤية مشرفة ولكن من سيدفع التكاليف ؟ يقول العربى ان تلك المسألة تحتاج الى مناقشة طويلة ، ولكن فى أى من الأحوال فلن يقوم مليونيرات أمريكا بهذا ، فعلى عمان أن تدفع حق الدواء ، ولكن هل ستستطيع ذلك ؟ أو هل يمكن أن يصل الدواء الحديث الى مستوى أو طاقة عمان فيما يختص بمسألة التكاليف ؟

ان عمان لا تستطيع الآن أو فى المستقبل أن تدفع بالنسبة للأصناف الأمريكية .. ولكن هل يمكن أن تدفع قيمة الأصناف المحلية ؟ انها تدفع الأقساط الأولى فقط منها الآن ، ولكن ليست قيمة التكاليف كلها بالطبع ، فلم تكن أتعاب الطبيب تدرج فى أية حسابات يحملها مبارك الى زبائن المستشفى ، رغم أن تلك الأتعاب هى أكثر الأشياء أهمية ، ولمراعاة ذلك يجب مضاعفة القيمة لكل فاتورة .. وبذلك سيكون العبء ثقيلا حتما . ولكن التأمين يمكنه أن يقوم بذلك ، والشكل الوحيد للتأمين الجماعى

الذى تعرفه عمان هو عبارة عن خدمات تقدمها الحكومة بالمجان وتدفع عنها ضرائب ، وبالتأكيد لن يكون من الصعب على الحكومة تنظيم خدمات صحية لكل البلد ، لو وضعت قائمة المستفيدين من هذه الخدمات نصب عينيها •

فالعاملون بمزارع البلح يجب أن يتخلصوا من الملاريا ، والباعة الجائلون من الأمراض التى تصيب أقدامهم ، وسكان المدينة من التراكوما والجلوكوما ، ويجب عزل مرضى الجذام ، والقضاء على مثل هذا المرض المهلك تماما •• ان أيا من هذه الأهداف ليست ببعيدة المنال اذا كان الفريق الطبى من أبناء البلد ، واذا ما استطاعت هذه المستشفى المتطورة أن تغير نفسها فى النهاية الى هيئة حكومية مع مساندة جميع طوائف المجتمع له •

ان واجبنا هو أن نساعد الفقير ، وأن نعطي كل انسان ما يحتاج اليه ، وأن نوزع الفائض الذى نملكه لشخص يفتقده ، اننا نأمل أن يتم ذلك على الأقل ، لأن المستقبل يعتمد عليه ، والشخص العربى ديمقراطى للغاية ، وقد يكون الشيخ انسانا عاديا جعلته الظروف يرتقى منصب الزعامة ، ولكن فى المسجد يقف العبد الى جانب السيد حيث ان كليهما يقف أمام ربه ، وفى المدن الساحلية يختلط دم العائلات الكبيرة بالدم الافريقى الذى جاء أصلا من افريقية •

ومن ناحية أخرى ففى كل قبيلة عربية كبيرة طبقة من الأرستقراطيين كما هو معروف فى العالم فى أى مكان •

ان للأعياد الكبيرة للتقويم الهجرى نواحي اجتماعية ودينية أيضا ،

والواقع أن المظاهر الاجتماعية تفوق كل شيء آخر .. فاللحم المشوى في هذه الأعياد كان يرسل إلينا .. وأثناء أيام العيد كان الطعام يرسل الى الفقراء .. ومن العار الكبير أن يكون هناك جائع في هذا اليوم ، ويتجمع الجيران خلال العيد في جماعات يجلسون مع أصدقائهم ، يشربون الشاي والقهوة وترتدى البنات الفساتين الحمراء الجديدة ، ويرتدى الأولاد ملابسهم الجديدة •

ولكن ماذا عن المجتمع ككل ؟ كيف ستكون الحال في الخمسين عاما القادمة ؟ .. فمن المحتمل أن تظل سيلان تأكل أسماكنا وستظل الأسعار منخفضة ، وربما تقرر أمريكا أن تعود الى أكل البلح العماني مرة أخرى وعندئذ يرفع ثمنه .. ولكن الشيء الوحيد الذي سيكون جديدا بلا شك .. هو أنه يبدو أن الجزيرة العربية تقوم على بحيرة من البترول .. فالبحرين ونجد تقومان الآن بالفعل في ارسال آلاف البراميل يوميا .. ان ذلك البترول سيزيد من ثراء الجزيرة العربية قليلا .. وسوف يتحسن الموقف الاقتصادي في الجزيرة العربية •

وقد ظهرت بوادر ذلك من الآن .. فكل الوظائف المطلوبة ، وهي بالملئات ، توجد في شركات البترول ، وان نجاح هذا الجيل سوف يأتي من البترول ، وكذلك سوف يعتمد دخل الحكومات على هذا المصدر ، وهناك بعض النتائج الطيبة التي لاحت في الأفق ، فها نحن أولا نقوم ببناء مدرسة في مسقط ، وقد قمنا بتعبيد الكثير من الطرق .. وفي مسقط الآن ما بين خمسين الى مائة من أجهزة الراديو ، وفي كل أسبوع سوف تأتي الأخبار الى الجزيرة العربية من خلال مكاتب روما ، ولندن ، وبرلين ،

وبغداد ، والقاهرة ، ان عرض آراء وأنباء العالم سيكون له نتائج قيمة
بالتأكيد •

أمير أو ملك
ولقد وجد سلطان مسقط وشيخ البحرين وسلطان نجد أنفسهم أمام
ضمير العالم في معالجتهم للموضوعات التي تخصهم ، فلقد ساعد تدفق
البتترول من آبارهم عن زيادة دخول هؤلاء الحكام بصورة كبيرة ، وقد
وقعت أعمال شغب في مدن الخليج الثلاثة ، تطالب بانفاق هذا المال على
رفاهية خير الشعب ، وبذلك لم يعد ممكناً أن يتصرف هؤلاء الحكام في
أموال البترول لمصالحهم الخاصة •

والنظام المدرسي في البحرين شيء ملحوظ جداً ، بينما تتخلف الكويت
قليلاً ، وينبغي إقامة مدرسة جميلة في مسقط ، وسوف تقوم هذه المدارس
بتدريس الرياضة ، والجغرافية للآلاف من أبناء الجيل الصاعد •

وستقوم هذه المدارس بعمل توعية لهؤلاء التلاميذ لكي تعرفهم
بواجباتهم نحو بلادهم وحقوقهم ، وكذلك واجبات الحكام ، وسوف
تتروود هذه المدارس بأجهزة الراديو ، والصحف ، وكلنا أمل أن نتوقع
من انتشار الأفكار الجديدة أن تزداد الكفاءة الادارية ، وأن يتحرر الشعب
من كافة أنواع المعاناة •

وفي العراق ازداد في الوقت الحاضر عدد المتعلمين بصورة كبيرة ،
ولكن خلال زيارتي الأخيرة للمدن الساحلية لم تكن الصورة قد بدأت
تتضح ، وان كان من حقنا أن نأمل في أن يكون ذلك موقفاً مؤقتاً ، اذ أن
المستقبل لابد سيشهد أشياء أفضل ، وهناك أسس بنينا عليها هذا الأمل ،

فالحضارة الغربية تغزو العالم الآن ، سواء بجوانبها الايجابية أو السلبية ، وقد بدأت هذه الحضارة تنتشر عناصرها في العالم ، فمعاداة السامية الألمانية شئ غريب وكذا حملة اليابان في الصين ، ولكن الحضارة العربية جاءت الى العالم بالكثير من الأشياء الطيبة المفيدة أيضا •• فالاعتقاد والايمان بالمساواة الجوهرية لكل فرد هي فكرة دينية كالمساواة بين الرجل والمرأة •

واذا قدر للعناصر الطيبة من مظاهر الحضارة العربية أن تسود قاننا وبلا شك سوف تنتقل الى عالم جديد ، عالم عظيم ومستقبل مشرق تملؤه الآمال والأعمال العظيمة في كل جهات الجزيرة العربية •

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	الفصل الأول : تقديم مسقط
١٥	الفصل الثانى : تجاربى الأولى
٢٠	الفصل الثالث : عمان الداخلية
٢٩	الفصل الرابع : الباب الخلفى لعمان
٤٢	الفصل الخامس : اعادة فتح مسقط
٥٠	الفصل السادس : هيئة المستشفى الادارية
٥٣	الفصل السابع : صحة العائلة
٥٨	الفصل الثامن : صحة المجتمع
٦٣	الفصل التاسع : زارعو البلح
٨٣	الفصل العاشر : الوصول الى البدو
٩١	الفصل الحادى عشر : الجبال والواحات
٩٩	الفصل الثانى عشر : الأحوال الاقتصادية والاجتماعية
١٠٨	الفصل الثالث عشر : المستقبل

